قصص الرحالة والمكتشفين

فاسكو دي جاما

بقلم

محمد عبد الغنى حسن

الطبعة الثانية

دار المعارف

تنفيذ المتن والغلاف
بالمركز الالكترونى
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@ idsc.net.eg

مولد الملاح ونشأته

فِى قريةٍ صغيرةٍ منْ قُرى البرتغالِ تُسمى «Sines» «سينز» وفى ولايةِ المتيجو «Alemtejo» إحْدَى أعمالِ هذه المملكةِ الطموح إلى ما وراءَ الآفاقِ البعيدةِ خلفَ البحار، وفى سنة ١٤٦٠ من ميلادِ السيد المسيحِ عليه السلام، وُلد لأحدِ الرجالِ المتوسطين فى الثراءِ وَلَدٌ جاءَ تاليًا لأخٍ أكبرَ اسمه «Paulo» «باولو». وتردَّدت الأسرةُ فى اختيار الاسمِ الذِى سيكونُ علمًا عَلى الوليدِ الجديدِ، كما هى عادةُ الناسِ حينَ يستقبلونَ المواليدَ.. وحينَ تُصمم الأقدارُ على الاسمِ الذِى وَقَعَ عَليه الاخْتيار، فإنها تكونُ حينَ ذَاكَ قدْ رسَمت الفلكَ الذِى يدورُ فيه صاحبُ الاسمِ سعادةً وشقاءً، ورفعةً وانخفاضًا، وإقبالاً وإدْبارًا.

وكان اسمُ «Vasco» «فاسكُو» هو الذِى اخْتَارته الأقدارُ، أو اخْتَارته الأسرةُ لهذا الوليدِ المسْتهل.. ولكنَّ الناسَ - حتى أهل هذا الوليد - لم يعلَمُوا أنهم يلُفُّونَ فى ثيابِ المهدِ طفلاً سيتحدَّثُ باسمه الزمَان.

نعم! كانت الأقدارُ تُهَيئ منذُ طفولةِ الوليد «فاسكُو» كُلَّ سببٍ يصلُ بهِ إلى الشهرةِ، ويصلُ اسْمُهُ إلى مسامعِ الملكِ «Manul» «عمانويل الأول» ملكِ البرتغالِ، ومسامعِ رجالِ البلاطِ فى عَهْده،

وكانتْ فى شبابِ «فاسكُو» المبكِّر حروبٌ بينَ مملكةِ «البرتغالِ» «وقشتالة[1]»، وكانت هَذِه الحروبُ قائمَةً على المنافسةِ والمطامعِ وشهواتِ التوسُّعِ بينَ البلديْنِ. ولكنَّ قوةَ «قشتالة» لم تكُن بحيثُ تقفُ طويلاً أَمَامَ البرتغالِ ومطامعهَا البعيدَة.

وفى هَذِه الحروبِ اشتركَ الشَّاب «فاسكُو دِى جَامَا» ضِدَّ الدولةِ المعاديةِ لوطَنِه، فأظهرَ منْ ضُروبِ الشَّجَاعة، وحُسنِ البلاَء، وثباتِ القلبِ ما لفتَ إليه الأنظار. وعرفَ الملكُ «عمانويل» باسمه وبأنباءَ شجَاعته، فكأنما كانَ يدَّخره ليومٍ عَصيبٍ.

وظهرتْ شجاعةُ الشَّاب «فاسكُو» فى البحرِ كما ظَهرت عَلى سطحِ البر. فقد اشتركَ فى رحلاتٍ بحريةٍ، وفى مغامراتٍ حَولَ الشَّاطِئ البرتغالى، ولو أنه لَمْ يتوغل كثيراً فى ظلماتِ المحيطِ. إلا أنَّ روحَه البحريةَ العاليةَ، ومهارتَهُ فى ركوبِ البحرِ قد لفتتْ إليه الأنظار، وَجَذبت إليه الأسماع.

وجاءت الساعةُ المناسبةُ التِى كانت الأقدارُ تعدهَا منْ زمنٍ بعيدٍ لهذا الشابِّ المغامرِ الوديعِ. ففى مَطَالعِ الصيفِ من عام ١٤٩٧ كانَ الشغفُ بكسبِ كشوفٍ بحريةٍ جديدةٍ يلحُّ عَلى الملكِ الطمُوح، فإذَا كانَ «دياز» قد بلغَ فى البحار حتى رأسِ «عشمِ الخيرِ»، وإذَا كانَ

---

(١) قشتالة: مملكةٌ قديمةٌ بشمالِ ووسطِ أسبانيا. وأصبحت عاصمتها مَدْريد بعد القرنِ السادسِ عَشَر.

«خريستوف كولمبوس» قد بلغَ فى مَسيره غربًا إلى أنْ كشفَ قارةً جديدةً كانت بعيدةً عن مواقعِ الظُّنُون، أو مَرَامى العيونِ، هى قارة أمريكا، فلمَ لا يواصلُ المغامرونَ منْ أهلِ البرتغالِ أسْفَارهم، ولمَ لا يركبونَ ظهورَ الأمواجِ المتلاطمَةِ، ليكشفُوا للبرتغالِ - التى أظهرتْ أمثالَ الأميرِ «هنرى الملاح» - وللعالمِ كُلِّه طرقًا جديدَةً، إلى بلادٍ بعيدةٍ، لَمْ تطأْهَا من قبلُ أقدامُ المغامرينَ والكاشفينَ؟

وبحثَ الملكُ «عمانويل» بينَ شبابِ شَعبه الحبِّ للبحار عنْ شَابٍّ يحقِّقُ الأمنيةَ التى كانتْ حُلْمه فى ليلهِ، وشغلُه فى نَهاره، وأخذَ الملكُ يستقْصِى أنباءَ المغامرينَ والأبطَالَ، الذينَ قد تكونُ حروبُ البرتغالِ قد كشفَت مَوَاهبَهُمْ وفضائلَ نُفُوسهم.

فى قصر عمانويل

فِى مَطالعِ الصيفِ من سنة ١٤٩٧ لجأَ الملكُ «عَمَانْوِيلْ» إلى كبيرِ مُنَجِّميه، وهو رجُلٌ مِنَ المتنبئينَ كانَ له عِلْمٌ بمواقعِ النُّجُومِ، وكان له معرفةٌ بما يدورُ فِى أفلاكه منَ النَّحْسِ والسعْدِ، ومنَ الشَّر والخيرِ،

فاستشاره فيما هو مُقْبل عليه منْ كَشْفِ طريقٍ جديدٍ إلى بلادِ الهندِ، عنْ طريقِ رأسِ الرجاءِ الصَّالح، أو رأسِ عَشْم الخير.

وكانَ الناسُ فِي ذلكَ الزمانِ يعتقدونَ فِي هؤلاءِ المنجمينَ وَيَسْتَشيرُونَهُمْ فى أمورهم.. ولكنَّ النجومَ لم تقلْ فى هذه المرةِ اسمَ ذلكَ البطَل الذِى خَبّأته الأقدارُ وراءَ الستار، بلْ ذكَرت أنَّ كشفًا جديدًا سيجلبُ للملكِ «عمانويل» الذهبَ الكثيرَ، والخيرَ الوفيرَ، وأنَّ هذا الكشفَ المنتظرَ سيكونُ على يدِ رجلٍ جمعَ إلى شجاعةِ القلبِ، رجَاحةِ العقلِ، وسدادِ الرأى، والصبرِ علَى المكاره مهمَا كَانت، والشدائِد مهمَا عَظُمت.. وأنَّ هذا الرجلَ له أخٌ يشدُّ أزْره، كما شدَّ مُوسَى[1] الكليمُ أزْره بأخيه هَارون ...

وبحثَ الملكُ عنْ رجلٍ تجمَّعَت فيه الصفاتُ التِى كشفهَا المنجمُ بحسابِ نُجُومه ومعلُوماتِ فلكه! وهنَا يَلتقى الحظُّ معَ التنْجِيم كما تَلتقى المصادفةُ معَ القصدِ، وإذَا بالرجلِ فاسْكُو دِى جَامَا يظهرُ فِى الميدانِ بماضيه وبآثاره المرْوِيَّةِ فِى الحروبِ. وإذا له أخٌ اسمه

(١) هُوَ مُوسى نبىُّ الله. وسُمى الكليمُ لأنه كلَّم الله من فوقِ جَبَلِ الطُّور فى سيناء.

«باولو» ولكنه ليسَ فى مَنَالِ الأيدِى، لأنه هـاربٌ مـنْ تنفيـذِ عقوبـةٍ عليه، لأنه أصابَ قاضيَ إحْدَى المدنِ البرتُغالية بجـرحٍ بليـغٍ فـى أثنـاءِ خُصُومةٍ بينهمَا، فَخَشى «باولو» أن يقـعَ فـى يـدِ القـاضِى فيعَاقبـه بالسجنِ، فآثر الهربَ على ظلامِ السُّجُون.

وذاتَ يومٍ جمعَ الملكُ إلى ساحاتِ قصْره العظيمِ فى العاصمـةِ: لِشْبُونة كلَّ مَنْ بَلغه أنَّ لهم خِبرةً بركـوبِ البحـار، ومداومـةِ الأسـفار، وكـانَ فيمـنْ دُعِـىَ إلـى هـذا الاجتماعِ «فاسكو دى جاما»، وكانَ فيه حيـاءٌ

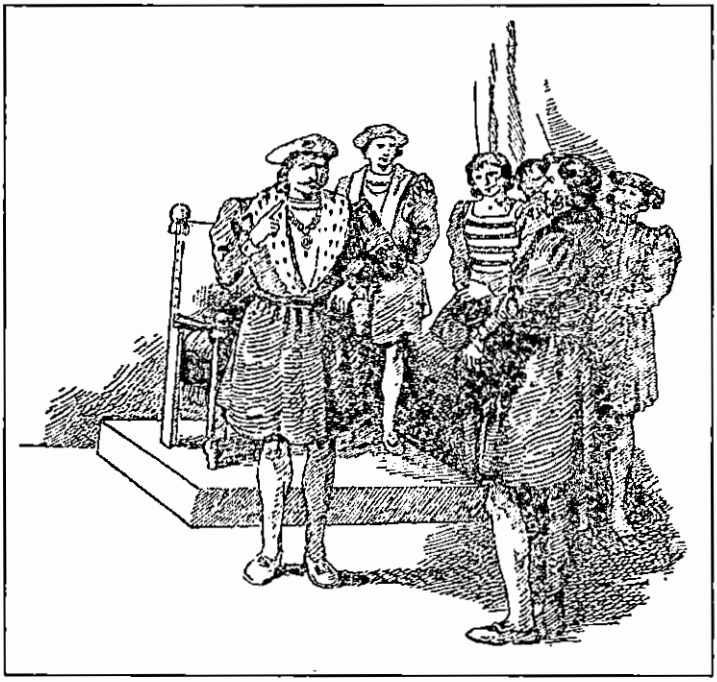

وخجلٌ شديدٌ لم يرفَعْه إلى مرتبةِ المتظاهرِينَ. وأخذَ الملكُ الخبيرُ بعلمِ البحار، الطموح إلى ما وراءَ الأفقِ البعيدِ، يَسْأَلُ المدعوينَ ويستطلعُ مَا عِنْدَهم، ويأخذُ ويُعطِي معهم فى الحديث حتَّى يختبرَ بنفسِه مَدَى مَعَارفهم، ويعرفَ مبلغَ اسْتِعْدَادهم.

وجاء الملكُ إلى «فاسكو دى جاما» يَسْأله كما سألَ مَنْ قَبله مِنَ الرجالِ، وكانت إجَاباتُ الرجلِ تحملُ منَ الثقةِ والثباتِ والصدقِ ما جعلَ الملك يطيلُ مَعَهُ الكلامَ.

وسألَ الملكُ «فاسكو دى جَامَا» عَمَّا إذَا كانَ له أخ، فأجابَ الرجلُ بالإثباتِ، ولكنه ذكَر قصةَ الأخِ الطريدِ الهاربِ خشيةً منَ العقابِ. وأعلنَ الملكُ عَفْوه عَنْ «باولو» الهاربِ، حتى يستطيعَ أن يعودَ إلى الظهور حيثُ شاءَ، بدلاً مِنَ الاختفَاء.

وكان قصدُ الملكِ واضحًا منْ هذا العفْو عَنْ «باولو» شقيق فاسكُو دِى جَامَا. ألم تخبره النجومُ - على لسانِ مُنجمه الخاص - أنَّ الغِنَى سَيَأتيه عنْ طريقِ كشفٍ عظيمٍ، عَلى يدِ رجلٍ جَرىء، يشدُّ أَزْره أخٌ شَقِيقٌ؟

وهنا جاء الرجلُ الجرىءُ، وله أخٌ شقيقٌ، ولكلٍّ مِنَ الاثنينِ خبرةٌ بالبحار، فلمَ لا تتحققُ النبوءةُ فيهمَا، ولمَ لا يقعُ عليهما اختيارُ الملكِ، حتى يطابقَ هذا ما أَخْبرت به النجومُ؟

لقدْ أعلنَ الملكُ «عمانويل» فى نهايةِ الحفلِ أنه قد اختارَ «فاسكو دى جاما» لكشْفِ طريقِ الهندِ عن طريقِ العبور حولَ إفريقيَّة، أو حولَ رأسِ الرجاءِ الصالحِ، الذى كانَ يُظَنُّ أنه نِهَايةُ المطافِ منذ رحلةِ «بارتلميو دياز» .

ثم أعلنَ الملكُ فى الحفلِ نَفْسِهِ عَفْوه عَنْ باولو دِى جَامَا، وَسُقُوط العقوبةِ عنه، وأنه حرٌّ أن يظهرَ فلاَ يناله عِقَاب، ولا يُصِيبه جَزَاء .

طريق إلى الهند

شَهِدَ ثغرُ لشبونة فى الأُسْبوعِ الأولِ منْ شهرِ يوليو سنة ١٤٩٧ احتفالاً رائعًا لم يشهدْه منْ قبلُ حتى فى أيام بارتلميو دياز، وازدحَمَت المدينةُ العتيقةُ بالآلافِ المؤلفةِ منَ الرجالِ والنساءِ والولدانِ، الذينَ وفدُوا عليهَا فى هَذِه المناسبةِ السَّعيدة، مناسبةُ إقلاعِ السفنِ التى ستمخُر عبابَ البحرِ الزخار[1]، لتكشفَ الطريقَ إلى الهندِ عَنْ طريقِ غَرْبى إفريقية، لا عنْ طريقِ البحرِ المتوسطِ[2] الذى كانت تعترضُه صعوباتُ النقلِ عنْ طريقِ برزخِ السُّوَيس.

---

(١) الزخار: زَخَرَ النهرُ: زخْرًا. وزُخُورًا. وزَخيرا: طَمَا وفاضَ.

(٢) هو الذى يسمى الآن خطأ بالبحر الأبيض المتوسط.

وجاءَ الملكُ «عمانويل» نفسُه إلى المرفَإ[1]، وحوله حَاشيتُه وبطَانَتُه فـى مَلاَبسـهم الزَّاهيَـة، وَفِـى أَثوابـهم المصْنُوعـةِ مـنَ الحريـرِ أو القطيفةِ الملّونة، وفى عبَاءاتهم المزرْكَشةِ الموشَّـاةِ بـالحلى والقصَـب، وفِـى سَـرَاويلهم المزنقَـةِ حَـول أرجلِـهم الدقيقـةِ الصلْبـة، ليودِّعـوا المغـامرَ «فاسكُو دِى جَـامَا» وأعضـاءَ رحْلته الذينَ سينشرونَ قُلُوعهم،

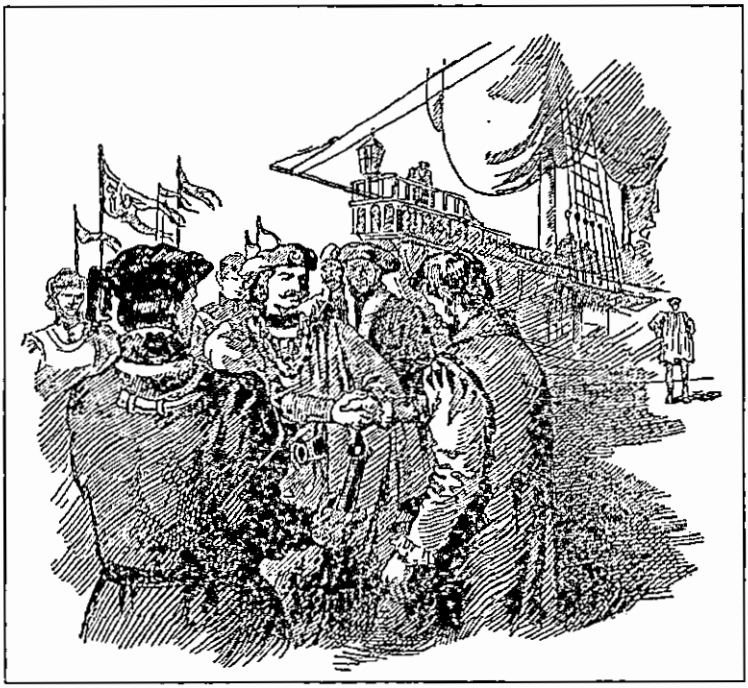

(١) المرفأ: مَرْسَى السُّفنِ فِى البحرِ.

ويضربونَ بمجَاديفِهم عَمَّا قليلٍ، ليجُوبُوا أقاصِي البحار، وأطْرَافَ الأرضِ البعيدَةِ، فى سبيلِ العثور عَلى طريقٍ جَديد.

وكانت بلادُ الهندِ بأحْلاَمها الجميلةِ، وبمحْصُولاتها الغَالية الثمينةِ، وبتوابلِهَا الشَّهية اللَّذِيذة، وبتجَارتها الرابحَةِ الوفيرةِ هى هدفُ البرتغاليين ومحطُّ آمالهم فى هَذِه الرحلةِ المهيَّأة، وما سبقهَا من رحَلاتٍ كانَ آخرهَا رحلة «بارتلميو دياز» .

لقد كانَ قصدُ البرتغاليينَ أنْ يكْتشِفُوا إلى الهند طَرِيقًا أقْصَر، وأقلَّ كُلفة، وأوصَلَ حبلاً منْ طريقِ البندقية - فى البحرِ المتوسط - الذِى كانَ يكلِّفُ منَ الجهدِ، ومنْ مشقَّاتِ النقلِ والتفريغِ فِى مصرَ، ما كانتْ تذهبُ أكبرُ حصيلةٍ منه إلى جُيوب المماليكِ فى مصرَ، وإلى جُيوبِ البنادقةِ فى ثغرِ البنْدُقية.

وأعدَّ الملكُ لهذِه الرحلةِ المخاطرةِ أربعًا منَ السفنِ قويةَ البناءِ، مَتينةَ الأضْلاع، مُتلاحمةَ القلاعِ، قائمة الصَّوَارى[1]، صَلْبة المجاديفِ[2]، وأعدَّ لها من ضرورَاتِ الرحلةِ، وملاَقاة الظروفِ، واحتياطَاتِ الأحداثِ ما يواجهُ كُلَّ احتمالٍ، كما أعدَّ لها منْ مخزونِ الطَّعَام والشَّراب، وعاجلِ الدواءِ، ومُسْعِفِ العقاقيرِ ما يجبُ معه الاحْتياط، حتى الليمون! لقد كانَ منه زادٌ يَكْفى لإسعافِ البحارةِ حينَ يُصيبهم الدوارُ، أو يَلْحَقهم الغثيانُ.

---

(١) الصَّارى : العمودُ فى وسَطِ السفينةِ يُعَلق فيه الشراعُ. وجمعه صَوَار.

(٢) المجْداف: خَشَبة فى رأسِهَا لوح عَرِيضٌ تُدفع به السفينةُ والمفرد: مِجْداف.

وقد حَمَلت هذه السفنُ منَ الأسماءِ مَا لا يجملُ بالتاريخِ أنْ ينْساه، وَهُو يَرْوى قصةَ هؤلاءِ المغامرينَ جيلاً بعدَ جيلٍ. ووقفَ أميرُ البحرِ الجريءِ يوزعُ الرجالَ عَلى السفنِ، ويخصُّ كُلَّ سفينةٍ بقائدٍ يثقُ بهِ ويعتمدُ عليه، وهو يقولُ: اصعدْ يَا «باولو دى جَامَا» إلى السفينةِ «سان رافايل» فإنها تَحْتَ إمرتكَ! واصعدْ يا «نيقولا كوبليو» إلى السفينةِ «بريو» فإنها فِى ذِمتكَ! واصعَدْ يا «جونسالو» إلى سفينةِ المئونةِ فإنها فِى عُهدتكَ! أما أنا فَنَصِيبى سفينة «سَانْ جابرييل» !.

وكانَ العَلَمُ البرتغالى يرفرفُ فوقَ «سان جابرييل»، لأنها تحملُ الملاحَ وأميرَ البحرِ المغَامِر، الذِى يمثلُ ملكَ البرتغالِ العظيمِ.

وآذنت الساعةُ بقيامِ السفنِ فى طريقهَا إلى الهدفِ الجليلِ، وَرَفَعت كلُّ واحدةٍ منهَا مَرَاسيهَا[1]، ونَشَرت قِلاَعهَا[2]، لتضرب فى أوساط المحيط، إلى غايةٍ مجهولةٍ، لا يدْرى ماذَا يكونُ عندهَا إلا عَلاّم الغُيُوب..

إيمان المغامرين

ما أجملَ الإيمانَ باللهِ حينَ يملأُ القلوبَ، ويعمرُ النفوسَ! إنه العدة فى الشدةِ، والضياء فِى الظلامِ، والإشراقة الحلوة التى تبددُ ظلماتِ اليأسِ المريرِ.

---

(١) رَسَت السفينةُ: وَقفت عن السَّيْر. المرسى: مكان رُسُوّ السَّفينة.

(٢) القلْعُ: شراعُ السَّفينة. الجمع: قُلُوعٌ. وقلاعٌ. وقلعةٌ.

لو رجعنا إلى الليلةِ السابقةِ عَلى ليلةِ رحيلِ «فاسكو دى جاما» مِنْ ميناء «Restelo» «ريستلو» بثغرِ لشبونة، لوجدنا الرجلَ الجريءَ يأخذُ معه كُلَّ رجالِ هذه البعثةِ الكشفيةِ، فيمْضِى - عَلى مَسيرةِ أربعة أميالٍ منْ لشبونة - إلى بَيْعَة[1] صغيرة، كان قد بناهَا الأميرُ البرتغالى «هنرى الملاّح» منذُ عشراتِ السنينَ، ليتجهَ فيها الملاحونَ - الغَادُونَ[2] والرائحُون[3] - إلى الله فى صَلَوَاتهم.

وقد اتجهَ «فاسكو دى جاما» إلى هَذِه الكنيسةِ الصغيرةِ المطلةِ عَلى البحرِ من قريبٍ، وأخذَ يُصَلى لله معَ قومِهِ، مُستمدًّا منه العونَ على إنجاحِ العملِ الذِى هو مقبلٌ عليه، والذِى لا يعرفُ مَا تُخبئه له الأقدارُ فيه.

وحينمَا علمَ الملكُ المتدينُ نبأَ هذِه الصلواتِ التى أقامهَا أميرُ البحرِ قبلَ الرحيلِ بليلةٍ واحدةٍ، نَذَر إذَا عَادَ «فاسكو دى جاما» ظافرًا من رحْلته ليقيمنَّ عَلى أرضِ هذِه البيعةِ ديرًا فخمًا، جليلَ البناءِ، يكونُ مثابةً لكلِّ مُتبتلٍ ينقطعُ لعبادةِ الله.

غادرتِ السفينةُ ميناءَ «ريستلو» فى اليومِ الثامنِ من شهر يوليو سنة ١٤٩٧ بينَ هتافِ الرجالِ، وزغاريدِ النساءِ، وضياحِ الأطفالِ. وفى زاويةٍ هادئةٍ من زوايَا السفينةِ «سان رافايل» - حيثُ كانت القيادةُ

---

(١) البيعة: الكنيسة والمعبد لغير المسلمين.

(٢) غَدا: غَدْوًا: ذَهَبَ غُدْوة.

(٣) رَاح: رواحا: سارَ فى العَشىّ. ويستعمل الرّواح للمسير فى أىّ وقت من ليْل أو نهار وكذلك الغَدْوَ.

لباولو شقيق «فاسكو دى جاما» - جلسَ كاتبٌ يُدَوّن يومياتٍ عَنِ الرحلةِ وتَطوراتِها، وكانت هَذِه اليومياتُ الخطِيرةُ المصدرَ الذِى اعتمدَ عليه المؤرخونَ فى تدوينِ أخبار كشفِ الطريقِ إلى الهند.

لم يكن الأسبوعُ الأولُ من الرحلةِ حافلاً بكثيرٍ منَ المغامراتِ، فقد كانَ البحرُ ساكنًا، والريحُ غيرُ غضوبٍ ولا عَاصِفة، وبدأ الأسبوعُ الثانِى حيثُ مرتِ السفنُ بجزر كنارى، وبخليج «ترا ألتا» «Terra-Alta» الذِى اشتهرَ بذلكَ الاسم عندَ ملاحى البرتغال منذُ أن بدأت سُفُنهم تشقُّ عبابَ المحيطِ. ولم يجد الملاحونَ بأسًا فى أن يصيدُوا السمكَ لبضعِ ساعاتٍ منْ صباحِ يومٍ جميلٍ، حيثُ اجتازُوا خليجَ «ريو دو أورو» «Rio do Ouro» الواقعَ على مدار السَّرطان.

وأخذتِ السفنُ تتجهُ نحوَ الجنوبِ حينَ بدأ الضبابُ ينعقدُ كثيفًا فى الليلِ، فلم تتبينْ كلُّ سفينةٍ أختهَا، ولم يستطعْ «باولو دى جاما» - وهو على ظهرِ «سَان رافايل» - أنْ يرى أخَاه «فاسكو» وهو عَلى السفينةِ «سان جابرييل»، ولم يبددْ نورُ الصباحِ ولا شمسُه غياهبَ[1] هذا الضبابِ الكثيفِ، فلم تستطع واحدةٌ منَ السفنِ أن تتبينَ غيرهَا، وهنا أمرَ «باولو» ملاّحيه أن يوجهُوا الشراعَ إلى «رأس فرد» «Cape Verde»، حيث اتفقَ رجالُ البعثةِ على أن يلتقُوا هناكَ إذَا ما فرقهم حادثٌ، أو بَاعَدت بينَهم ظروفٌ.

---

(١) الغيهَبُ: الظلمةُ الشديدةُ والجمع غَيَاهِب.

ولم يستطع «رأس فرد» أن يجمع شمل المتفرقين، وأخذت كل سفينة تضرب فى الظلام، وأخذت الريح تصفر صفيرا ألقى الرعب فى القلوب، وبعد ساعة اليأس واستحكام حلقته، انقشع الضباب، وسكنت الريح، وإذا بالملاح «باولو» يلمح سفينة أخيه «فاسكو دى جاما» وهى تسبق الركب ببضعة عشر ميلا. وهنا انفرجت الأسارير، وابتسمت الثغور. ولما تقارب المتباعدون، صعدت من هنا وهناك أصوات اختلطت مع صوت الأمواج، تحمل عبارات الفرح باللقاء، والابتهاج بجمع الشمل. فلما أرخى الليل سدوله أطلقت السفن النيران، ودقوا الطبول، وأقاموا ليلة بهيجة للاجتماع بعد أن فرقهم الضباب.

ومر يوم على هذا المهرجان الليلى الذى احتفل فيه رواد المحيط باجتماعهم والتقائهم بعد أن ذهبوا فى نواحى المياه كل مذهب، وما كان أشد فرحهم حين بلغوا جزيرة «سنتياجو»، وهى أكبر جزائر «رأس فرد»، فألقوا مراسيهم فى خليج «سانتا ماريا»، حيث استراحوا، وتزودوا باللحم والماء وخشب الوقود، وأصلحوا من سفنهم ما دعت الحاجة إلى إصلاحه.

ولكنهم لم ينعموا بذلك كثيرا، فعلى بعد مائتى فرسخ من سنتياجو - وهم متجهون إلى الجنوب - ارتفعت أصوات مختلطة من السفينة «سان جبرييل» التى تحمل على متنها «فاسكو دى جاما»،

وخَشى الرَّكْبُ[١] أَنْ يكونَ الرائدُ الأولُ أو أحدٌ منْ رجَاله أصيبَ بمكْروه، ولكنْ تبينَ أَنَّ صارى السفينة قد انكَسَر، وعَانى الملاحونَ يومينِ وليلة فِى إصْلاحه، بعد أن احْتَالوا عَلى السيرِ بالنهار، والسُّرى[٢] فى الليلِ، بما أسْعفتهم به الحيلُ.

وفى الربع الأخير من شهر أغسطس - وعَلى ما ذكره مُدوِّن الرحلةِ فى الثانِى والعشرينَ منه - بينما كَانُوا متجهينَ نحوَ الجنوب الغربى، رأوا فى السماءِ طيورًا كثيرةً تُشبه إلى حدٍّ بعيدٍ طائرَ البلشون[٣]، فلما قاربَ الليلُ أنْ يُظلم رأوا تلكَ الطيور تندفعُ بقوةٍ فى طَيرانها نحوَ الجنوبِ الشرقى، كأنَّما هى تسرعُ إلى البر قبلَ أنْ يلفهَا الظلامُ الرهيبُ. فلمَّا أشرقَ صباحُ اليومِ التالِى - وكانُوا مُوغلينَ فى مياه البحرِ إلى مسافةِ ثمانمائة فرسخٍ - صَادفهم لأولِ مرةٍ حوتٌ هائلٌ من حيتانِ المحيطِ، فزادَ ذلكَ منْ وَحْشتهم.

وكأنَّ ذلكَ الحوت كانَ نذيرًا بما وراءه من حيوانِ البحرِ الغريبِ، وكأنه كانَ بدايةَ منطقةٍ عامرةٍ بأنواعٍ منْ سباعِ البحرِ، مما لم يكنْ لكثيرٍ من رجَالِ الرحلةِ سَابقَ عهدٍ به.

وظلُّوا كذلكَ أسَابيعَ وأسَابيعَ، تُسلمهم موجةٌ إلى موجةٍ، وتقذفُ بهم لُجَّةٌ[٤] وراءَ لجةٍ، حتى لاحَت لهم علاماتٌ كثيرةٌ تدلُّ على قُرْبِ

---

(١) الركْبُ: جمعُ راكبٍ.

(٢) السُّرى: بتشديد السين المضمومة وفتح الراء. السَّير ليلاً.

(٣) طائر طويل المنقار والرجلين. ويُعرف بمالك الحزين.

(٤) اللُّجَّةُ: تردُّدُ أمْواج البحر. والجمع لُجٌّ ولُجَجٌ ولجاجٌ.

الأرضِ منهم، وكانَ أوضحُ هذِه العلاماتِ ظهورَ الأعشابِ التى تَنْمو عَلى الخلجَانِ والشَّوَاطىء.

ولم تكذب التجربةُ والقياسُ مَا رَأوه بالعين، واستنبطُوه بالنظرِ، فقدْ دلّوا[1] مقاييسَ الأعماقِ فكانت النتيجةُ مُصَدِّقةً لاستنباطِهم، وَمَا هو إلا أنْ طلعَ الصباحُ فكانت الأرضُ منهم على مَدَى النظرِ القَرِيب.

خليج سانت هيلين

لظهور الأرضِ بعدَ سفرِ البحرِ الطويلِ فرحةٌ لا يعرفهَا إلاَّ الذينَ كابدُوا الأسفارَ فِى البحار، وكذلكَ كانت فَرحة «فاسكو دى جاما» ورجَاله حينَ لاَحت لهم معالمُ الأرضِ منْ قريبٍ، فقاربُوا السفنَ بعضهَا منْ بعضٍ حتى كَادَت تتلاحَمُ، وارتدُوا ثيابَ الأعيادِ والهرجَاناتِ كأنهم فى يومِ عيدٍ، وَحَيوا الملاّحَ الأعظَم - فاسكو - بإطلاقِ النيرانِ وإشعالِ الصَّوَارِيخ، وَزَينوا السفنَ بالراياتِ والأعلام، وهَدَّءُوا مِنْ سرعةِ السفنِ استعدادًا للرسُوِّ عَلى الأرضِ، ولكنْ ما كانَ أشد أَسَفهم حينَ لم يجدُوا مَرْسى أمينًا تطمئنُّ إليه نفوسُهم، أو أرضًا صلبةً تثبتُ عليها أقدامُهم، فعادُوا إلى البحرِ يجدونَ فيه الملجأَ الأمينَ؛ ولكنهم فى اليومِ التالى رجعُوا إلى الأرضِ، فوجدوهَا مُنخفضةً واطئةً يؤدِّى إليها خليجٌ وسيعٌ.

---

(١) دَلَّى الحبلَ: أنزلَه فِى البئر أو البحرِ أو القناة.

ولم يجدْ «فاسكُو دِي جَامَا» مَفَـرًّا مـنْ أنْ يـنزلَ أحـدُ ملاّحيـه فـى قاربٍ خفيفٍ ليجسّ الأعماقَ، ويختبرَ الأغوارَ[١]، حتى تتمكـنَ السـفنُ مِـنَ الرسـوِّ فـى مَرْسَـى يؤمـنُ معـه الجُنـوح[٢]، وكـانَ هــذا المــلاحُ «بيرو ديلنكير» شيخُ البحارةِ فِى السفينةِ «سان جبرييل» .

كانَ هذا الخليجُ أصْلح مأْوى لجأت إليه سفنُ البعثةِ البرتغاليةِ بعدَ سفرٍ طويلٍ، فقد مرَّ عليهم إلى اليـومِ أربعـةُ أشـهرٍ - منـذُ رحيلـهم منْ لشبونة - لم ينعَمُوا فيها بمقامٍ هَادِئٍ هَـانِئٍ هَـانِئٍ كمقَامـهم فـى هذا الخليجِ: لقدْ كانت مياهُه صَافيةٌ نظيفَةٌ حتى لتكَـاد تشـفُّ عمـا تحتهَا، وكانَ بمأْمَنٍ منَ الريـاحِ العَاتيـة، إلا الريَـاح الشـمالية الغَرْبيـة، التى لم يكنْ يقيهِ منهَا طبيعةُ امتدادِه منَ الشـرقِ إلى الغـربِ، وكـانَ هذا الخليجُ أشبهَ بمولـودٍ جديـدٍ فـى نظـرِ هـؤلاءِ الـروادِ الكَاشـفينَ، فَبِمَاذَا يُسمى هذا الوليدُ الجديدُ؟

لقـد صـاحَ صـائحٌ منـهم: إن العنايـةَ قـد لاحظتنـا اليـومَ ببركـةِ القديسـةِ «هيلاَنـة»، فلمـاذَا لا نقـرنُ اسمهَا بـه، كمـا تُقـرن الأسـماءُ بأصحابهَا على مَدَار السنينَ؟ واتفقُـوا عَلـى أنْ يُسـموا هـذا الخليـجَ الطيبَ الهادئ: خليجَ «سَانْتْ هيلين»..

وألقُوا مَرَاسيهم فى المرفـأِ الـذِى وجـدَه «بـيرو ديلنكـير» صالحًـا، ومكَثـوا هنـاكَ ثمانيـةَ أيـام نَظَّفـوا خلالهَـا سـفُنَهُم، وَرَفَـوْا قُلُوعَـهُم، واختزنُوا الخشبَ اللازمَ لوقُودهم ونَجْرِهم[٣].

---

(١) غَارَ الماءُ غوْرًا. وغُؤُورًا: ذهَبَ فى الأرض وَسَفل فيهَا.

(٢) جَنحت السَّفينةُ: انتهت إلى ماءٍ قليل فمَالت ولصقت بالأرض.

(٣) النَّجْرُ: هو عمليةُ النجارة فى الخشبِ.

ونزلُوا من السفنِ بعدَ أن طالَ بـهم سـفرُ البحـرِ، فأحسُّـوا كـأنَّ الأرضَ تضطربُ مِنْ تحتهم أو تميدُ بهم، كأنهم لا يزالونَ فوقَ سطحِ المحيطِ، وشَاقهم السـيرُ فـى الـبرِّ بعـدَ أن كـانت الأرضُ منـهم بعيـدَة كالحلمِ، ورأوا أهلَ هذهِ الأرضِ قومًا منَ السـودِ، زادُهـم لحـم سبَاع البحرِ والحيتانِ والغزلانِ وجذور الأعشابِ. ولا يلبسونَ المنسـوجَ مـنَ الثيابِ، وإنما يأتزرونَ[1] بجلودِ الحيوانِ، ويعلقونَ حرابًـا حَـادَّةً مُقَوسـة على أكْتَافِهم القويَّة، وسهَامِهم منْ خشَبِ الزيتُونِ.

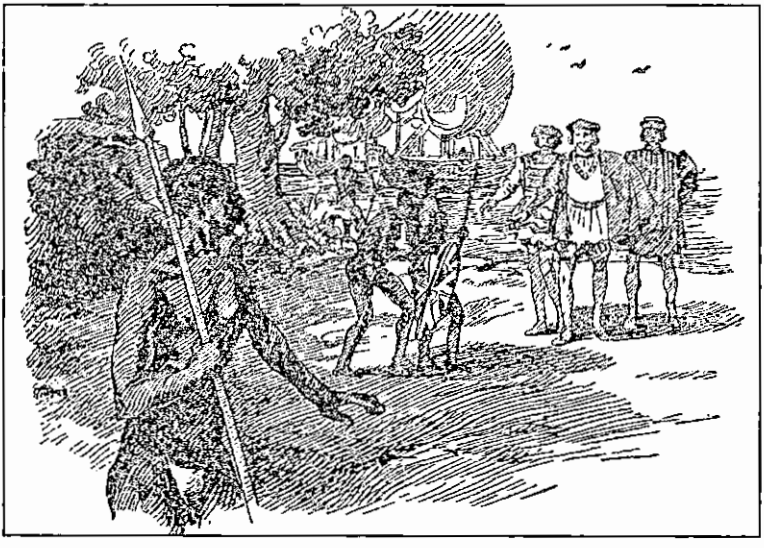

(١) إئْـتَزَرَ. واتَّـزَرَ : لَبِسَ الإزار. وهـو ثـوبٌ يحيـطُ بـالنصفِ الأسْـفَلِ مـن البَـدَن «يذكر ويؤنث»..

وما كانَ أشد الفروقِ فِى اللَّونِ والعاداتِ والأكـلِ بـينَ سـكَّانِ هـذِه الأرضِ وبـينَ هـؤلاءِ الغربـاءِ النـازلينَ عَليـهم! وقـد بَـدَا كـلُّ شـىءٍ هَنـا غريبًـا كـلَّ الغرابـةِ عَلـى هـؤلاءِ الـروادِ الكاشـفينَ، إلا الكِـلاَب الكثيرة التِى كانتْ قريبـةُ الشـبهِ مـنْ كـلابِ البرتغـالِ، وكـان نباحـهَا أشبه بنباحـهَا! وإلاَّ هـذِه الطيـور التِى كـانت - كذلـك - كطيـور البرتغـالِ، ومنـهَا النـورسُ، والحمـامُ، والقنـبرُ ذُو النواصِـى، وكثـيرٌ غيرهَا.

أما المناخُ فكانَ على حالةٍ منَ الاعتدالِ والجودةِ والملاءمةِ للصحَّـةِ لم يألفوهَا فى بلاَدهم، ولم يكُن المرعى وَخِيمًـا ولاَ وَبِيـلاً[1]، وإنما كـانَ يجودُ بأطيبِ الأعْشَابِ.

بين الزنوج

لم يكنْ شىءٌ أغرب عندَ هؤلاءِ البرتغـاليينَ مـنْ أهـلِ هـذِه الأرضِ وهُم فِى ثيابهم منَ الجلودِ، وفِى حرَابهم المحدَّدَة، وفى سِلاَحِهم المـهيأُ للنضَال. وقد نزلُوا إلى البر يومًا آخر - وعلَى رَأسهم «فاسكو دى جامـا» - فأَسَروا رجلاً منْ أهلِ البلادِ، وكانَ قزمًا أسودَ اللونِ.

وقد زادَ من غرابةِ هذَا الأسودِ فى عُيونـهم أنـه كـانَ يجمـعُ عسـلَ النحل منْ فوقِ كثبان الرملِ المنبسطِ، لأنَّ من عادةِ النحلِ هنـاكَ أن

(١) المكانُ الوخيمُ هو الثقِيلُ الذِى لا يلائم الصحة. والوبيلُ هو الضَّار السيىءُ العاقِبة.

يمجُ[١] العسل عند أقدامِ الآكامِ[٢]، وسفوحِ الروابى حولَ الأيكِ[٣] اللَّفيفِ.

لقد بُوغت الرجلُ وهو مكبٌّ عَلى جَمْع العسَل، فإذا به يؤخذُ إلى سفينةِ «فاسكو دى جاما»، ولم يكنْ بينه وبينهُم منْ سبيلٍ إلى التفاهُم إلاَّ بالإشَارة، وهى لغةُ الذينَ لا يتفاهمونَ باللسانِ، فأجلَسُوه معهم على المائدةِ، وأكلَ مما كانُوا منه يأكلُونَ.

وقضَى الرجلُ الإفريقى الأخيذ[٤] لَيلتَه عِلى ظهرِ السفِينةِ «سان جابرييل»، فلمَّا أقبلَ الصباحُ أمرَ «فاسكو» به أَنْ يلْبس أحسنَ الثيابِ وأن يذْهَب به إلى الشاطئ، فكانَ ما أمرَ به الربَّانُ العظيمُ..

وفى اليومِ التالِى جاءَ بضعةُ عَشَرَ منْ أهلِ هذِه البلادِ إلى حيثُ تَرسو السفنُ فى المرفأِ الأمينِ، وهنَا عرضَ عليهم «فاسكو دى جاما» أنواعًا منَ السلعِ، وصُنوفًا منَ البضائعِ ليعرفَ إذا كانت هذه السلعُ مما تُخْرجه هذِه البلادُ أو مما يَعْرِفه أهلُهَا، وكانَ مما عرضَه عليهم أعواد منَ القرفةِ، وحفنةٌ منَ القرنفلِ الأسودِ، وبعضُ اللآلئ والذهبِ وغيرهَا. ولقد اتضحَ من نظراتِ عُيونهم وملاَمح وُجوههم أنهم لا يعرفونَ عنها شيئًا، وأنها لا وجودَ لها فِى أرضِهم. وعَلى الفور

---

(١) يمجُّ العسل: يقذِفُه مِنْ فمِهِ.

(٢) الأكَمَة: التَّلّ. والجمع: أكمٌ. وآكام.

(٣) الأَيْكَة: الشجرُ الكثير المُلْتف.

(٤) الأخيذ: المأخوذُ كالأسير.

قَدَّم إليهم قائدُ البعثةِ أجراسًا كُروية، وخَوَاتم منَ الصفيح، وعملةً من النحاسِ المطلى بالقَصْدِير.

وكأن صَليلَ[1] العملةِ ورنينهَا، ولمعانَ الصفيحِ الذِى سيعلُوه الصدأُ عَمَّا قليلٍ، قد أغرى أهلَ هذِه الأرض بالوفودِ عَلى سفنِ هؤلاءِ الكاشفينَ، لعلَّهم يُصيبونَ منها ما أصابَ إخوانهم بالأمسِ، ففى اليومِ التالِى جاءَ إلى مَرسى السفنِ الرابضةِ عَلى الشطِّ الهادئ أربعونَ أو خمسونَ منَ الوطنيينَ، فلم يكد ملاَّحو السفنِ يفرغونَ من غِدَائهم حتى نزلُوا إلى الأرضِ يحوسُون خلالهَا، ويعرفونَ أحوالها، ويختلطونَ بأهلهَا، واستطَاعوا بما حصَلُوا عليه منْ عملةٍ نُحَاسيةٍ أَنْ يَشْتروا بعضَ الأصدافِ التى كانَ يحملهَا المواطنونَ فى آذانهم للتحَلِّ بهَا، وقد بدَت هذه الأصدافُ فى بياضهَا الناصعِ وبريقهَا اللامعِ كأنها مَطْلية بالفضَّة. كَما اشْتروا أيضًا مراوحَ ومذبّات[2] مصْنوعة من ذُيولِ الثعالبِ المثبتةِ فى مَقَابض، وكانَ يستعملهَا أهلُ البلادِ فى الترويحِ على وُجُوههم، وذبِّ الهوامِّ والذبابِ عنهَا.

وبلغَ منْ حِرصهم عَلى النحاسِ وتقْديره أنهم كانُوا يشترونَ بالعملةِ الضئيلةِ منه سلاحًا كاملاً، حتى ليبيعَ الواحدُ منهم حَربته المحددةَ بأدنَى قِطعة منَ النحاسِ. ويبدُو حُبُّهم للنحاسِ فِى أنهم يحلُّونَ آذانهم بحباتٍ صَغيرةٍ منه.

---

(١) الصليلُ: صوتُ العملة.

(٢) المذبّات: جمع مذبّة وهى ما يطردُ به الذبابُ «المَنْشَة».

وكانَ «لفاسكو دى جاما» تابع منَ العبيدِ لم يرتفعْ بعـدُ إلى مرتبـةِ الأحرار، وكانَ الملاحُ الأعظمُ يُحبـه ويـأنسُ إليـه، ويَستبشـر بمطـالعِ وجهِـهِ فـى أحلـكِ السـاعاتِ. فجـاءَ هــذا العبــدُ «فرنـان فيلــوزو» «F. Veloso» إلى «فاسكو» يسأله :

- أيأذنُ لى مولاى القائدُ أنْ أصحبَ هــؤلاء الوطنيـين إلى بُيُوتـهم؟ فأجَابه القائدُ :

- ألم يكفكَ أنْ تراهم هنا عَلى ظهرِ السفينةِ وعَلى الشَّاطئ حتى تَمْضِى معهم إلى دُورهم؟

- أريدُ يا مولاىَ أن أكتشفَ طرائـقَ معيشَـتهم، وألـوانَ مآكلـهم، فإنَّ كلَّ شىء يبدُو غريبًا منهم.

- يأبى الفضـولُ إلا أن يلازمكَ أيها العبدُ المتطفلُ! فاذهبْ ولا تبعدْ خشيةَ أن ينالكَ سُوء.

وذهبَ «فرنانُ» مع الزنوجِ، وتركَ بقيةَ الجمعِ فِـى السـفنِ يُطْعمـون.. ولم يكد الزنوجُ يبرحونَ المرسَى ويبعدونَ عـنِ السـفنِ بعـضَ البعـدِ حتى اصْطَادوا واحدًا من سباعِ البحرِ، ومَضوا به إلى سـفحِ هَضبـةٍ عاليةٍ قاحلةٍ، فأوقدُوا النارَ، ونَصَبُوا الأحجـارَ، وشـووا ذلـكَ الصيـدِ البحرِى السمينِ الذِى يُعد أَشْهى طَعَامـهم، وأكلُـوا منـه وقدمُـوا إلى «فرنان فيلوزو» قطعًا منه، ثم أخذُوا يلتهمونَ بعـضَ الجـذور التـى يحبونهَا كثيرًا.

فلمَّا فرغُوا منْ زَادِهم العجيبِ، وملَئُوا بطونهم شواءً وجذورًا، رَغبوا إلى «فيلوزو» أنْ لا يَمْضِى معهم أكثرَ منْ هذا، بل يجبُ أنْ يعودَ إلى السفنِ فى المرفأِ منْ حيثُ أتى.

ولم يكدْ «فيلوزو» يكونُ على مَرْمى حجرٍ منَ السفنِ الراسِيَةِ، حتى سمعَ الملاحونَ البرتغاليونَ صيحاتٍ تنطلقُ، فإذا هو «فيلوزو» يصيحُ، وإذَا الزنوجُ مترَبصونَ فى أيكةٍ كثيفةٍ عَلى الشاطئ. وكانَ الملاحونَ لا يزالونَ عَلى موائدِ العشاءِ، فهرعُوا وعَلى رَأْسهم قائدُهم «فاسكو دى جاما» الذِى كانَ آخِذًا حِذْره منذُ أرسَى سُفنه على ذلكَ المرفأِ الهادئ. ونزلَ بعضُ البحارةِ إلى قاربٍ خَفيفٍ، خفافًا إلى النجدَةِ، سراعًا إلى إنقاذِ «فيلوزو»، الذِى كان فى الماءِ إلى ما يُدَانى صَدْره، وإذَا الزنوجُ يحاولونَ اختِطَافه ويحولونَ دونَ إصْعَاده إلى قاربِ النجدةِ، وقامَ بينَ الفريقينِ نِزَالٌ[1] استعملَ فيه الزنوجُ رِمَاحَهم، التِى أصيبَ منها فاسكو دى جاما وأربعة من رجَاله ببعضِ الجراحِ.

ولقد تركَ هذا الحادثُ أثرًا فى نفوسِ البرتغاليينَ، ونَسبوه إلى إحسَانهم الظَّن بقومٍ لم يظنوا فيهم عنفًا، ولَم يتوقَّعُوا منهم غَدْرًا، ولم يعلَمُوا أنَّ الزنوجَ كانُوا - من ناحيتهم - يتوجسونَ شرًّا من هؤلاءِ الغرباءِ المقتحمينَ عليهم دِيَارَهم، المتطلعينَ فى فُضُولٍ إليهم. ولعلَّهم كانوا ينظرونَ من وراءِ الغيبِ إلى ما يُخفيه هؤلاء الزوّارُ لهذِه الديار، منْ طريقٍ إلى الفتحِ والاستعمار..

---

(١) نِزالٌ: قِتالٌ وصراعٌ ومُنازلةٌ.

قريبًا من رأس الرجاء الصالح

لم يكنْ غايةُ جهدِ «فاسكو دى جاما» ورجَاله أنْ يبلُغوا أرضَ ذلكَ المرفأِ الأمينِ ليجعلوهَا نهايةَ مَطَافهم، وآخر رحْلَتهم. إنهم مَاضُونَ إلى همةٍ أبعدَ منْ ذلكَ وأصعبَ مَنَالاً. وما هَذه المرحلةُ التى وقفُوا فيهَا إلاَّ وَاحِدة منْ مَرَاحل عدةٍ لا يعلمُ إلاَّ الله ماذَا يكونُ عددهَا، ولا المصَاعب التِى تحيطُ بها، ولا الأهْوال التِى دُونَهَا..

لقدْ رفعُوا المراسِى، وأخذُوا الأُهبةَ للرحيلِ بعدَ أن تزودُوا مِنَ الخشبِ والزادِ، ونشرُوا القلاعَ، ومضُوا متجهينَ إلى الجنوبِ، ولم يكونُوا يعلمونَ على وجهِ الضبطِ بعد، ما بينهُم وبينَ رأسِ الرجاءِ الصَّالح، حتى «بيرو ديلنكير» ذلكَ الملاحُ العتيقُ الذِى كانَ مُصاحبًا «لبارتلميو دياز» فى سَفْرته إلى ذلكَ الرأسِ العنيدِ! حَتَّى «ديلنكير» لم يكن متأكدًا منَ المسافة عَلى الرغمِ منْ أنه سلكَ ذلكَ الطريقَ منْ قبل، ولم يكنْ يدرى موضعَ المكانِ الذِى هُم فيه الآن من الكرةِ الأرضيةِ!

وَمَضوا فى المحيطِ تدفعُهُم الريحُ تارةً، وتطوحُ بهم أُخرى، حَتَّى قاربُوا رأسَ الرجاءِ الصالحِ، ولكنَّ عنفَ الرياحِ لم يمكِّنهم منْ بُلُوغه إلا بعدَ جهْدٍ جَهيدٍ، ولقد كلَّفهم ذلكَ أغلَى الأثمانِ، فقد تحطَّمت

سفينةُ المؤنِ، ونُقل مَا فيهَا منَ الزادِ والمئونةِ والخشبِ، ومنْ عليهَا منَ البحارةِ إلى السفنِ الثَّلاث.

ولاحَ[1] لهم قرب الشاطئ الإفريقى خليجٌ أرادُوا أن يحتمُوا به بعدَ أن نَالَ منهم التعبُ والجهدُ منالاً كثيرًا، فإذا هُم فى خَليج «سان براس» الذِى يُعرف الآن باسمِ «خليج موسل» «Mossel Bay»، فأقامُوا به قرابةَ أُسْبوعيْنِ، لعلهم يُرِيحونَ بذلكَ نُفُوسَهم التى زعزعتهَا الرياحُ، وأجسَامَهُم التى أضنتهَا العواصفُ.

وفى خلالِ مَقَامهم بخليجِ «سان براس» ظهرَ لهم جمعٌ منَ الزنوجِ يقاربُ التسعينَ عددًا، ويشبهُ فى مَلاَمحه، وحِرَابه، أولئكَ الزنوجُ الذينَ لَقُوهم قبلَ ذلكَ فى خَليج «سانت هيلين»، وكان بعضُ هؤلاءِ القومِ يقطعونَ الشاطئَ جَيْئَةً وذهَابًا بينَمَا بقى الآخرونَ فوقَ الهضابِ لا يتحركُونَ.

ولقد أثارَ هذا المشهدُ فى نفوسِ الملاحينَ شكًّا ورعبًا ذكَّرهم بما حدثَ من قبلُ، وكانَ أكثرُ الملاّحينَ فى السفنِ الثلاثِ قد احتشَدُوا عَلى ظهرِ السفينةِ «سان جبرييل» ليكونُوا عَلى مقربةٍ منْ مَلاَّحهم العظيمِ. فلمَّا وقعتْ أعينُهم عَلى الزنوجِ فى ذلكَ الجمعِ الحاشدِ أعدُّوا للأمر عُدَّته، واستعدُّوا لمواجهةِ مَا قدْ يجدُّ منْ أحداثٍ، وهَيَّئُوا السفنَ للتحركِ منْ سكُونٍ، وجهَّزُوا القواربَ

(١) لاَحَ الشىءُ لَوْحًا: ظهَرَ.

بالسلاحِ، واستعدُّوا للنزولِ عَلى البر. وعَلى مَقْربةٍ منَ الشاطئ ألقى «فاسكو دى جامَا» إليهم عددًا مِنَ الأجراسِ الكُرويةِ فتهافَتُوا عَلى التقاطها، ونزلَ بعضُهم فى الماءِ ليتناولَ هذِه الأجراس منْ يدِ الملاَّح الجرِيء.

ولقد أثارَ ذلكَ دهشةَ البرتغاليينَ، فقدْ رَوى لهم «بيرو ديلنكير» - وهو ممن شهِدُوا رحلةَ «دياز» قبلَ ذلكَ - أنَّ الزنوجَ كانُوا يفرونَ حينما شاهدُوا «دياز» ورجَالَ بَعْثته، وأنهم أبوا أن يتنَاولُوا شيئًا منْ يدِ ذلكَ الرجلُ الغريبُ! وتذكَّر «ديلنكير» مَشهدًا آخرَ فِى رحلةِ «دياز»، لم يَفِر فيه الزنوجُ، ولكنهم حاولُوا أن يمنعُوا «دياز» منْ بلوغِ الشاطئ، وصارُوا يرشقُونه بالحجَارة رشقًا منْ فوق هضبةٍ عاليةٍ مُشْرفة عَلى البحرِ، فلم يجِدْ «دياز» وسيلةً لحمايتهِ منْ رشقِ الحجارةِ وقذْفِ قطعِ الصُّخُور، إلاَّ أنْ يرمِى أحدَهم بسهمٍ أصَابَ منه مَقْتلاً.

ولقد كانَ حادثُ قتلِ الرحالةِ «دياز» لأحدِ الزنوجِ فى أثناءِ رحلتهِ سنة ١٤٨٦ وكشفِ رأسِ الرجاءِ الصَّالحِ فى الطرفِ الجنوبى لإفريقية - سببًا لأنْ يُوجِسَ[1] الوطنيونَ منْ كلِّ غريبٍ طَارئ عَلَيهم، ولكنهم هنَا أمامَ «فاسكو دى جاما» ورجَاله لم يفرُّوا ولم يحاولُوا الهربَ؛ لأنَّ الأنباءَ كانت قد سبقَتْ إليهم منْ أهلِ خليج «سانت هيلين» الذِى قامَ فيه رجالُ «فاسكو» بعضَ الوقتِ، بأنَّ هؤلاءِ القومِ لا ضررَ منهم،

(١) أَوْجَسَ الرجُلُ: أحَسَّ بالخوفِ، وتوقَّعَ شيئًا ضَارًّا.

منهم، ولا خَطَرَ فيهم، وأنهم يُوَزِّعُونَ منَ الهدايَا التى يحملونهَا مَعَهم ما تُطَيَّبُ به النفوسُ!.

ولم يشأْ «فاسكو دى جاما» أن ينزلَ فِـى هـذِه البقعـةِ التـى كـانت تغطيهَا أيكةٌ كثيفةٌ مُلتفة الشجرِ، وآثرَ أن ينزلَ فى مكانٍ مكشوفٍ منَ الأرضِ حيثُ أشارَ إلى الزنوجِ أن ينتظِرُوه فيه.

ولقد أطاعَ الزنوجُ هذه الإشارةَ، فوقفُـوا عَلـى الأرض ينتظـرونَ، بينمَا نزل «فاسكو دى جاما» ومعه أحدُ ملاَّحيه تحيطُ بهما شِرْذمةٌ[1] منَ الرجالِ المزودينَ بالسلاحِ والقِسِى المهيأةِ للرمى.

ولم يُنتزعْ الشكُّ والحذرُ منْ نفسِ «فاسكو دى جاما» جُمْلة، فقـد كانَ على الجانبِ الأمينِ حينمَا أبانَ لهؤلاءِ الزنوجِ - بالإشارةِ لا بالعبارةِ - أنْ يتفرقُوا، وأن يدعُوا التكتلَ فى هذِه الكتـلِ، وأن يقـتربُوا منـه فُرَادى أَوْ مَثْنَى.

وسرعانَ ما فهمُوا الإشارةَ ولبوهَا على خيرِ الوجُوه. فكـانَ يُقـدم لكلِّ واحدٍ منهم الأجراسَ، والقلانسَ الحمراءَ؛ وكانوا يقدمـونَ إليـه فى مقابلِ ذلكَ أساورَ منَ العاجِ أو دَمَالِجَ[2] منه مما كانُوا يضَعُونـه فـى أعضَادِهِم[3] أو سَوَاعِدِهِم. وكانَ ظهورُ العاجِ بهذِه الكثرةِ دليلاً علـى

(١) الشرذمةُ: الجماعةُ القليلةُ من الناس.

(٢) الدمالج: جمع دُمْلُج. وهو مثل السوار يلبسُ فى المعصمِ.

(٣) العضْدُ: ما بين المِرْفقِ إلى الكتفِ والجمع أعْضَادٌ.

كثرةِ الأفيالِ فى تلكَ البلادِ. وإلى هنَا لم يكُن الملاحونَ رأوا قطيعًا منَ الفيلةِ، ولكنهم رأَوا فَضَلاتها حولَ مَوْردٍ للمَـاءِ، عرفُـوا أنـه مَشْـرَب الأفْيَالِ.

إلى جزيرة سباع البحر

فى أحدِ الأيام - بعدَ أنْ فرغَ الملاحونَ منْ شُئونِ الصبـاحِ - وفـى ذلكَ الخليجِ بالذاتِ، رأوا ما يقربُ منْ مائتى زنْجى، وقد وَفَـدُوا علـى السفنِ الراسيةِ فِى الخليجِ، ما بينَ شابٍّ نَشِـيطٍ، وشـيخٍ تَبْـدُو عليـهِ ملامحُ الكِبَرِ، وقد سَاقُوا معهم قطيعًا منَ الماشيةِ يبلغُ بضعةَ عَشَـرَ ثورًا وبقرةً، وبضعةً منَ الغنمِ. فلم يكد يَرَاهم البرتغاليونَ من عَلـى مُتونِ السفنِ حتى نزلُوا إلى الأرضِ، وهنَـا بـدأَ الزنـوجُ يغنـونَ عَلـى النَّـاى، وكـانَ ارتفـاعُ بعـضِ النغـمِ، وانخفـاضِ البعـضِ الآخـر يحـدثُ تَسَاوقًا[1] لا تكرهُهُ الآذان؛ وكـان بقيـةُ الزنـوجِ ممـن لا يصفـرونَ فـى النايات يرهفونَ آذانَهم إلى تلكَ الموسيقى الوطنيةِ فى متـاعٍ ونَشْـوة؛ كما أخذُوا يرقصونَ عَلى إيقاعِ النغمِ رقصَاتٍ رتيبَاتٍ..

وسرعانَ ما استجابَ الملاحُ «فاسكو دى جاما» لهذِه التحيَّات؛ فأمرَ علـى الفـور أنْ تـدقَّ الطبـولُ، وأذن لرجَـال بَحْرِيَّتـه أن يرسـلُوا[2]

---

(١) التَّسَاوُق: هو الانسجامُ بينَ الأشياء. والتَّتَابع بينهَا.

(٢) يُرْسِلُوا أنْفُسهم على سجيتها: يتركوها عَلى طَبيعتها.

أنفُسَهُم على سجيتها[1]، وأنْ يُطلقوا العنانَ لسيقانهم بالرقصِ البرتغالى الجميل.. وأخذ «فاسكو» يُشَاركُهم الرقصَ فى ذلكَ المهرجانِ البديع؛ الذِى أُقيمَ على ظُهور السفنِ الثلاثِ !

وما كادَ ينتهى ذلكَ الحفلُ اللطيفُ، حتى نَزَلَ البرتغاليونَ إلى البقعةِ التى نزلوهَا قبلا، فاشتروا ثورًا أسودَ اللونِ، ودفعُوا فيه منَ الثمنِ ثلاثَ أساورَ منَ العاجِ على سبيلِ المقايضَةِ !

وكانَ هذَا الثورُ الإفريقى غِذاءً شهيًّا لمائدةِ يومِ الأحدِ التَّالى!، والحقُّ أنه كانَ قد امتلأ شَحْمًا، وَطُبِّقَ لحمًا؛ ووجدَ فيه الملاحونَ مِنْ لَذاذَةِ الطعمِ، وحلاوةِ المذاقِ مَا ذكَّرهم بأبقار البرتغَالِ!

واطمأنَّ الإفريقيونَ إلى هؤلاءِ الغرباءِ الكرماءِ، فوفدُوا عَليهم للزيارةِ ومعهم زَوْجَاتهم وأبناؤُهم الصِّغار. ولكنَّ النساءَ كُنَّ يبقيْنَ عَلى رءوسِ الهضابِ!

وقد تكررَ منظرُ القطعانِ من الأبقار والثيرانِ مع هؤلاءِ الزنوجِ الذينَ احتشدُوا فى بقعتيْنِ عَلى الشاطئ، وأخذُوا يُصَفرون ويرقصُونَ كما فعلُوا فى يومٍ سَابقٍ.

كانَ الشيوخُ المسنونَ منَ الزنوجِ يتحلَّقونَ[2] حولَ البرتغاليينَ ويتحدثونَ معهم بالإشاراتِ، بينما كانَ الشبابُ منهم يجتمعونَ

---

(١) أَىْ يتحررونَ منْ كل قيدٍ.

(٢) أَىْ يجتمعونَ فِى حَلَقَاتٍ.

فى الغابةِ كأنهم عَلـى أُهبـةِ النضـالِ، ومعـهم السـلاح عَلـى أطـرافِ الأصابع.

وفجأةً سـاقَ الزنـوجُ قُطعانـهم إلى جهَـةِ الغابـةِ، فتوجَّـسَ «فاسـكو دى جاما» شرًّا منْ هذا، وظنَّ أنَّ فِى الأمرِ مَكيدةً يدبرهَا هؤلاءِ القـومُ، فأمرِ رجَاله بـأن يتجمعُـوا جميعًـا حتـى لاَ يتخطَّفـهم الزنـوجُ علـى انفرادٍ، كما أمرَ أحد ملاّحيه «مارتن ألفونسـو» أن لا يتقـدمَ داخـلَ الأرضِ للمساومةِ عَلى شراءِ ثيران.

وانسحبَ الملاّحونَ مُجتمعينَ، فَتَبِعَهُم الزنوجُ، فعـادَ الملاّحـونَ إلى سُـفُنهم وقـد تسـلَّحوا بـالحرابِ والرمَـاح، ليظـهرُوا للقـومِ أنـهم مُستعدونَ للنضَـالِ، وإن كـانُوا لا يُضْمـرونَ أىَّ سـوءٍ. فلمَّـا رآهـم الزنوجُ على هذه الهيئةِ منَ السلاحِ لاَذُوا بالفرار.

وكانَ «فاسكو» حريصًـا عَلـىْ أن لا يُصـابَ أحـدٌ مـنَ الإفريقيـينَ بسوءٍ منْ رشْقِ السهامِ وطعْنِ الرماحِ، حتى لا يثيرَ بذلكَ حفيظـة[1] قومٍ كـانَ أحـرص علـى كسْـبِ وُدِّهـم، ولكنـه أرادَ أن يعـرضَ أمـامَ الزنوجِ مظهرًا من مَظَـاهر قوتـه - حتـى لا يطْمَعُـوا فيـه - فـأمرَ أنْ يُطلـقَ مِدْفعـانِ مـنْ مُؤخـرةِ أحـدِ القـواربِ، لإلقـاءِ الرعـبِ فِـى النفوسِ.

---

(١) الحفِيظَةُ: الحِقْدُ والغَضَبُ الشَّدِيدُ.

ولم تكدِ القذيفةُ الأُولى تنطلقُ حتى دبَّ الهلعُ فى مفاصِلِ الزنوجِ الجاثمينَ فى الغابةِ المطلَّةِ على البحرِ، فَانْكَفَئُوا[1] سِرَاعًا فى هَربهم حتى سقطتْ منْ على أجسَامهم جلودُ الحيواناتِ التى كانُوا يرتدونهَا، كما انخلعتْ مَفَاصِلهم، فسقطَتِ الحرابُ والأسلحةُ مِنْ أيديهم المرتَجِفة. ولم يُنسِهِم رَهَبُ[2] الموقفِ أن يسوقُوا أنعَامَهم ومَاشِيتَهُم أمَامَهم، بعيدًا بعيدًا على رءُوسِ الهضَاب!.

ولم يفتْ مُدوِّن رحلةِ «فاسكو دى جاما» أنْ يصوِّر لنا فى لوحةٍ طريفةٍ دقيقةٍ ثيرانَ هذِه الأرضِ، فهى ضخَام الأجسَام، كثيراتِ السمن، أنيسَة غير وَحْشية، وكأنما أَعَانَهَا الخصاءُ[3] على أن لا تنبتَ لها قرونٌ، وهى تستعملُ فى حملِ الأثقالِ والناسِ، فتفْرش على السرجِ المصنوعِ منَ الغابِ والقصبِ[4] محفة منْ جذُوعِ الأشجَار.

وكانَ على مَرْمَى ثلاثة سهامٍ منْ هذا الخليجِ جزيرةٌ تكْثُر فيها «سباعُ البحرِ» كثرةً تلفتُ الأنظَارَ، ولا تزالُ إلى اليومِ تحملُ اسمَ «جزيرة السباعِ» «Seal Island»، ويصلُ حجمُ الواحدِ منها إلى حجمِ الدبِّ الكبيرِ، ولها أنيابٌ غِلاَظٌ. وبلغتِ الضراوةُ بهذهِ السباعِ أنها تهاجمُ الإنسانَ، ولا تقوَى أصلبُ الرماحِ، وأشدُّ المزاريقِ، على أن تصيبهَا بجروحٍ، مهمَا كانت قوةُ الرماةِ وصلابةُ عَضَلاَتهم. عَلى أنَّ

---

(١) انكفئُوا: رجَعُوا.

(٢) رَهِبهُ: رَهَبًا. ورهْبةً. ورُهْبًا: خَافهُ.

(٣) الخصاءُ: عمليةُ اسْتئصال الخِصْيَةِ.

(٤) الحافةُ: النَّاحيةُ أو الجانبُ ومنَ الشيءِ طَرَفُه.

البرتغاليينَ شاهدُوا بجانبِ هَذِه السباعِ الضخمةِ سباعًا بحريةً أُخرى أَخف ضَرَاوة، وأصْغر حجمًا، وحينَ يختلطُ زئيرُ كبارهَا بثغَاء[1] صغارهَا، يحدثُ من ذلكَ مزيجٌ عجيبٌ منَ الأصواتِ!

وفى يومٍ منَ الأيامِ خَاطر المغامرونَ برحلةٍ عَلى مقربةٍ قريبةٍ منْ هَذِه الجزيرةِ، التِى تُعد منْ أَغْنى مواطنِ سباعِ البحرِ فى عالمِ الحيطَات؛ فما كانَ أَشد دَهْشتهم حينَ عَدُّوا من صغارهَا وكبارهَا أكثرَ منْ ثلاثةِ آلافِ رأسٍ، وقد أخذَ الملاحونَ - وهم فى نشوةِ الفرحِ - يجعلونَ منْ عد هذِه السباعِ موضوعًا للفكاهةِ والتسليةِ، وكانَ «فاسكو دى جاما» يُشَجعهم عَلى المرحِ ويفتحُ لهم السبلَ إليه، حَتَّى يُبعدَ الملَلَ عَنْ نُفُوسهم، فأشارَ عليهم أنْ يُطلقوا النيرانَ عليها، فكانتِ السباعُ تقفزُ وتَثِبُ وثباتٍ عاليةٍ بعيدَةٍ، لعلهَا تجدُ سبيلاً إلى الخلاصِ منْ هذه الطلقاتِ المدَوية..

وليست سباعُ البحرِ أغربَ مَا فِى هَذِه الجزيرةِ، فهناكَ طيورٌ تبلغُ مبلغَ البطِّ فى حجْمها، ولكنهَا لا تستطيعُ الطيرانَ، لأنَّ أجنحتهَا عَارية منَ الريشِ، ولقد اصطادَ الملاّحونَ منْ هذِه الطيور أعدادًا كثيرةً، كما شاءَ لهم هَوَاهم، وسمعُوا لها أصواتًا استنكروهَا، واستقبحُوا سماعهَا، لأنها كانتْ أشبهُ بأصواتِ الحميرِ!

ولم تكنْ هذِه الطيورُ العجيبةُ غيرَ طيرِ «البنجوين الإفريقى»، أو «بَطْرِيق الماء».

---

(١) الثغاءُ: صوتُ الشاةِ فى الأصْلِ. وقد استُعملَ هنا لصوتِ تلكَ الحيواناتِ البحرية.

ولقد أقامَ البرتغـاليونَ أصحـابُ «فاسـكو دى جامـا» عَلـى خليـج «سان براس» «San Bras» هذا نَصْبًا[1] منَ الحجَارةِ، كما رفعُوا صَارِيًا من صَوَارى السفنِ بجَانبه، ووضعُوا عَلاَمة علـى قمتـه. ولما غـادرُوا المراسِى فى اليومِ التالِى شاهدُوا بأعينهم بضعـةَ عَشَـرَ مـنَ الزنـوجِ، وقد عَكَفوا فى جِدٍّ عَلى تقويضِ مَا أقامه هؤلاَء المغامرونَ..!

وهمَّت السفنُ بمغادرةِ الخليجِ، واحتواهَا ماءُ المحيـطِ بعـدَ أن تـزودَ الركبُ بحَاجته منَ الماءِ والوقودِ، وكانُوا على أملٍ أنَّ الريـحَ سَـتُعينهم على الرحيـلِ، فلمَّـا خيبـتِ الريـحُ ظَنَّـهم عـادُوا فـى اليـومِ نفسِـه، ليضعُوا المراسِى على شطِّ الخليجِ منْ جَديدٍ..

وظلُّوا بالخليجِ بضْعَةَ أيام أخر حتَّى هبتْ ريـحٌ مسـعفة، فرفعُـوا المراسِى ونشرُوا القلـوعَ، وبينمـا هـم فـى طَرِيقِـهم إذْ هبـت عَليـهم عاصفةٌ شديدةٌ، حَجَبت الرؤيةَ، واستحالَ عَلى كـلِّ سـفينةٍ أن تـرى أختهَا، فلمَّا مَالت الشمسُ إلى المغيبِ لمحَ ربانُ السفينةِ «سان رافايل» ربانَ السفينةِ «بريو» وهى عَلى بعدِ عـدَّةِ أميالٍ، واسـتعانَ الربابنـةُ بالإشاراتِ الضوئيةِ على أن يتبينَ كلٌّ منـهم سـفينةَ صَاحِبِـه، حتـى لا تتفرقَ بهم السبلُ فى لُجِّ[2] المحيطِ.

وفى أحدِ الأصبحَـةِ مـن شـهر ديسـمبر سـنة ١٤٩٧ رأى الملاَّحـونَ المغامرونَ الأرضَ عَلى مَقْربةٍ منْ «جزائر الصليب» «Cross Islands»

---

(١) النَّصْبُ: العلمُ المنصوبُ. والجمعُ: أنْصابٌ

(٢) لجٌ: الموجات العاليةُ وسط المحيطاتِ.

وهى لا تبعدُ كثيرًا عنْ أَقْصى ما وصلَ إليه «بارتلميو دياز» فى رحْلته التِى كشفَ فيهَا رأسَ الرجاءِ الصَّالح، وهنَا رأَى خلفاءُ ذلكَ الرحالةِ المكْتشف العظيم، النصبَ الذِى أقامه تسجيلاً لرحْلته. ولكنهم لم يكُونوا أدركُوا بعد أنهم عَلى الشاطئ الشرقى الجنوبى للقارة الإفريقية.

وهنَا وجدُوا بلادًا تختلفُ فى طبيعتهَا عما رأَوه عَلى الشاطئ الغربى، حَتَّى لقد أُخِذوا بمنظرِ الغاباتِ الفاتنةِ الكثيفةِ، وعجبُوا منْ كثرةِ الماشيةِ وخصْب المراعى إلى حدٍّ لم يألفُوه منْ قبلُ، وكلمَا أوغلُوا السيرَ بسُفُنهم فى محاذاةِ الشاطئ رَأَوْا طبيعةَ الأرضِ تزدادُ جمالاً وازدهارًا، ورأوا الأشجارَ تزدادُ نماءً والتفافًا وارتفاعًا. وهنَا أدركُوا أنهم فاتُوا الغايةَ التى وصلَ إليها «دياز» منْ قَبْلهم ببضْعِ سنواتٍ، عندَ «ريو دا نفانت» «Rio do Infante» أو كما تُسَمى اليوم «نهر السمك الكبير» «Great fish River».

وأَخذتْ ريحٌ عنيفةٌ تَحْمِلهم على السيرِ فى البحرِ عَلى غيرِ دليلٍ، وبعدَ أكثرَ منْ يومٍ وليلةٍ وجدُوا أنفسهم ثانيةً أمامَ «جزائرِ الصليبِ» التى بلغَ بهم الوهمُ أنهم غادروهَا بمدًى بعيدٍ! ولم تكُن الريحُ هذه المرةَ هِىَ التِى أَضَلَّتهم، ولكنهَا التياراتُ البحريةُ القويةُ التى عُرف بها ذلكَ المكانُ منذُ ذلكَ الحينِ.

وفى اليومِ نفسِه بَدَءُوا الكَرَّةَ منْ جديدٍ ليمضُوا فى الطريقِ الذِى حَاولوه مِنْ قَبْلُ، وقدْ أَعَانتهم ريحٌ طيبةٌ مواتيةٌ عَلى أنْ

يتخطوا عقبةَ التيـاراتِ الشـديدةِ، التِـى خَشـوا هَـذِه المـرَّةِ أنْ تختـمَ بالإخفَاقِ مَشْروعهم. وكأنَّ عنايةَ اللهِ شاءتْ لهم أنْ يمضُوا فى طَرِيقِهم إلى الأمامِ، حتى تَتِم فيهِم إرَادته إلى الغايةِ التِى كتبهَا لهـم فِـى سـجلِّ المكْتشفينَ.

عطاش إلى الماء ...

مَا أعجبَ المصائبَ وهى تأتِى فى مباهجِ الأعيادِ، ولو كانتْ فى ليلةِ الميلادِ! فى يوم ٢٥ ديسمبر - وهو يومُ مولدِ المسيحِ عندَ الغربيـينَ - جَلَس روادُ المحيطِ إلى مائدةِ الغدَاء، فأكلُوا منْ هنىء الـزادِ، وشـربُوا منْ لذيذِ الشرابِ مَا أسَاغته فرحةُ العيدِ فِـى حُلُوقـهم. ولمـا فرغُـوا منَ الطعامِ، وتمتعُوا بأطيبِ الأحاديثِ التى ذهبـتْ فيـهَا ذكرياتُـهم إلى وَطَنهم، وذهبت فيها آمالُهم إلى الهنـدِ وأحلامـهَا الجميلـةِ، كشـفُوا أنَّ صَارى السفينةِ «سان رافايل» التِـى كـانَ يقودهَـا «بـاولو دى جامـا» شقيقُ الملاحِ العظيمِ قـد أصيـبَ بعطـبٍ شـديدٍ، ولم يمنعْهُم الأسـفُ، من حسنِ الاحتيالِ، فإن الرجلَ يحتالُ فِى المـأزقِ[1] حتـى يخـرجَ منـهَا، وينجُوَ منْ أخطارهَا. فاحتـالُوا عَلـى معالجـةِ العطـبِ بمـا لاَ يتعطـلُ معه سيرُ السفينةِ، حتى يتاحَ لهم إصْلاحه إذَا بلغـتْ بـهم الأقـدارُ إلى مَرْفأٍ أمينٍ.

---

(١) المأزق: جمع مأْزق وهو الموقفُ الضيقُ الذِى يقعُ فيه المرءُ.

ومضوا بينَ ساحلٍ يَلْجَئُونَ إليه، وبحرٍ يرتمونَ فِى أَحْضانـه، وكـأنَّ المصائبَ تأْبى أن تجىءَ فُرَادَى، فلمْ يَكْفِهم عطبُ الصارى حَتَّى انقطعَ حبلُ المرسَاة، فسقطتْ المرساة إلى أعماقِ المحيطِ!

ولم تستطعْ «سان رافايل» - وقد نُكبت مـنْ نـاحيتين - أن تتجـهَ إلى الساحلِ لترسُو، فذهبتْ فى غَمَراتِ المحيطِ بعيدًا، حتى كَادَت مياهُ الشربِ العذبةِ تنفـدُ منهَا. ولم يكـن بـدٌّ مـنْ أنْ ينفـدَ المـاءُ المخـتزنُ المحدودُ، عندَ قومٍ طوحَت بهم الغمراتُ إلى غيرِ حُدُود.. فـاضطرُّوا إلى طَهْوِ الطعامِ بالماءِ الملحِ، احتفاظًا بما فِـى أَوْعيتـهم مـنَ المـاءِ العـذبِ، الذِى كانَ يُوزع عليهم بحسابٍ دقيقٍ.

وهنا تحتَّمَ عَليهم أنْ يَبْحَثُوا عنْ مرفإٍ أى مرفأ، أمينًا كـانَ أم غـير أَمِين!

* * *

ويبـدُو أنَّ العـامَ الميـلاَدى الجديـدَ - سـنة ١٤٩٨ - أرادَ أنْ يَفْجَـأَهم بكشفٍ جديدٍ؛ ففى يوم ١١ يناير منَ السـنةِ الجديـدةِ اكتشـفُوا علـى أرضِ السـاحلِ الشـرقى مَصَبَّ نـهرٍ صغـيرٍ.. يَـا لرحْمَـةِ الأقـدَار! إنهم ظِمَاء إلى الورُودِ[1]، فجَاءهم الماءُ العذبُ كأنه مَعَهم عَلـى ميعَـادٍ! فلماذَا لا يرسُونَ قربَ الشاطئ؟ مَا دَامت المرساةُ المفقودةُ الغائبةُ فى أعماقِ المحيطِ لا تمكنهم منَ الرسوِّ عَلى مَرفإٍ أمينٍ؟

---

(١) الوُرُودُ: هو الذهابُ إلى موردِ الماءِ للاستسْقَاءِ منه. ويقصدُ هنا مَصَبَّ النهرِ الصَّغير.

ونزلَ الملاحونَ فى قَوَاربهم الخفافِ، وَوَطِئت أقدامُهم - التِى طالَ عهدهَا بالبر - أرضًا قد احتشدَ فيها جمعٌ كبيرٌ مِنَ الزنوجِ، مَا بينَ رجالٍ ونساءٍ. وقد امتازَ الرجالُ بالقوامِ الفارعِ، وظهرَ فيهم رجلٌ تبدُو عليهِ ملامحُ الرئيسِ.

وأرسلَ «فاسكو دى جاما» اثنينِ مِنْ رجَالِه، أحدهمَا «مارتن ألفونسو» الذِى كانَ لهُ سابقُ خبرةٍ فى أرضِ الكنغو، ليستطلعَا أمرَ هذِه الجمُوعِ. ولقى الرسولَانِ البرتغاليان من حَفَاوة الزنوجِ بهما ما لم يكنْ يخطُر لهما ولا للركبِ كُلِّه فى حِسَاب..

وأحبَّ «فاسكو دى جاما» أنْ يجزِىَ الزنوجَ جميلاً بجميلٍ، فأهدَى إلى كبيرِهم الذِى تبدُو عليه آياتُ الرياسةِ، بزة[1] كاملة، وطربوشًا مراكشيًّا أحمرَ اللونِ، وسِوَارًا. فأعلنَ الرئيسُ حُسْنَ استعدادِهِ لأن يقدِّمَ إلى هؤلاءِ الغرباءِ كُلَّ ما يحتاجونَ إليه مِنْ مَعُونةٍ. وكانَ «مارتن» يقومُ بدور المترجمِ بينَ الفريقيْنِ..

وذهبَ «مارتن» وزميلُه فى صُحبةِ الرئيسِ الزنْجى إلى قريته داخلَ الأرضِ، بينما عاد «فاسكو» ورجالُه جميعًا إلى سُفُنهم.

ويَرْوى لنا «مَارتن» كيفَ كانَ فرحُ الرئيسِ بهدايَا البرتغاليينَ. ففى الطريقِ إلى قريتهِ، لبسَ الحلةَ التى أهْديت إليه، ووجَّهَ الحديثَ فى

---

(١) البزة: الثياب.

رضًا تامًّ إلى أهلِ قَرْيته الذينَ وفدُوا عليهِ لرؤْيته :

- انظُروا الهدايَا التِى خُلعت علىّ!

وقد قابلَ أهلُه ذلك الصنيعَ بالتصفيقِ ثلاث مـراتٍ أو أربعًـا، كأنمـا يحيونَ شَيْخَهم الذِى حظَى بهذَا العطـاءِ الجزيـلِ؛ ومـا زالُـوا يزفُّونـه بالتصفيقِ حَتَّى بلغَ قَرْيته. ولما فرغَ من هذَا العرضِ الشائقِ الجميلِ فى حـدودِ قَرْيتـه عـادَ إلى بيتـه، ومعـه رسـولا «فاسـكو دى جامـا»، فآواهما فى غرفةٍ واسعةٍ، حيـثُ قـدمَ لهمـا فـى العشـاءِ صحنًـا مـن عصيدةِ الذرةِ العُوِيجـة - التى تكثُر فى تلك البلادِ - ودجاجةً سمينـةً،

كأنها إحدى دجاجَاتِ البرتغَال!

ولم ينقطعْ - طول الليلِ كُلِّه - سيلُ الوافدينَ على بيتِ الرئيسِ، من الرجَال والنساءِ، ليشهدُوا بأَعْينهم نماذجَ منَ البشـرِ الذيـنَ قـذفَ بهم عَلى سَوَاحِلهم المحيط!!!

وفى الصباحِ جَاءهما المضيفُ وطلبَ إليـهما أن يعـودَا إلى السـفنِ الرَّاسيَة.. وأمرَ اثنينِ مـنْ أتباعِـهِ أنْ يُرَافقاهمـا، وزودهمَا بالدجـاجِ السمينِ، عَلى سبيلِ الهديةِ للملاَّحِ العظيمِ «فاسكو دى جاما» !

ولم يفته وهو يُوَدعهمَا أَنْ يقولَ لهمَا إنه سيرى الهدايَا التِـى قُدِّمَـت إليه لرئيسٍ أعظمَ منه، وقد ظهرَ أنه يقصدُ به ملكَ هَذِه البلادِ.

وكان مائتانِ من أهلِ البلادِ فى ودَاعِ الرسولينِ عَلى شاطئ البحرِ، حيثُ ركبَا القاربَ الذِى كانَ فى انتظارهمَا للوصُولِ إلى السفُن.

أرض الناس الطيبين

كانت هَـذِه الأرضُ أكثر مَا رآه الملاحونَ البرتغاليونَ ازدحامًـا بالسُّكَّان، وقد أَرْبى عددُ النساءِ فيهَا عَلـى عَـدَدِ الرجالِ إلى مـا يبلـغُ المثليْـنِ فـى تقديـر الكاشِـفينَ. وكـانت البيـوتُ مَبنيـة مـنَ القـشِّ وَهَشـيم[1] الـزرعِ، ويحمـلُ الرجـالُ عَلـى أَذْرعتـهم القِسِـيَّ الكَبـيرة، والسـهام المريشـة[2] والرمـاح المحـدَّدة النصَـال. وكـان النحـاسُ أكـثر معادنهَا، ويتخذُ الناسُ منه أساورَ ودَمَالِجَ[3] وخَلاَخيل وحَلَقات للزينةِ فـى شُـعُورهم المضْفُـورة، كمـا كـانَ يتخـذُ القصديـر فـى تطعيـمِ مَقَابض الخناجِرِ، وأغمادِ الحـرابِ المصنوعَـة مـنَ العـاجِ. أمـا نسـيجُ الكتَّان فقد كانَ موضعَ التقديرِ الكبيرِ عندَ أهلِ البلادِ، وكثـيرًا مَـا دفَعُـوا كميةً كبيرةً منَ النحاسِ فى سبيلِ الحصولِ عَلى قميصٍ منَ الكتانِ.

وأقامَ الملاّحونَ هنَا خمسةَ أيامٍ تزودُوا خلالَهَا بالماءِ العذبِ الذِى نَقَلَه إليهم - عَلى ظهرِ السفنِ - زُوَّارُهُـم الوطنيـونَ. ولم تطـلْ إقَامتـهم بالقدر الذِى يسمحُ لهم بأن يحمِلُوا منَ الماءِ العذْبِ مـا يسـدُّ حَاجتـهم،

---

(١) هَشِيم الزَّرْع: الشجرةُ اليابسَةُ البَالِيةُ .

(٢) السهام المريشة: التى ألصقَ عليهَا الريش .

(٣) الدُّمْلُجُ. والدُّمْلُوجُ: سِوَارٌ يحيطُ بالعضد. والجمع دمَالج، ودَمَاليج .

فقد جَاءت ريحٌ مُوَاتية حَمَلَتْهُم عَلى أنْ ينتهزوهَا فرصةً مُلاَئمة للإبحار فِى سبيلِ هَدَفهم البعيدِ!

ولَقَى الملاحونَ فِى مقَامهم بهذِه الأرضِ مَا دَعَاهم إلى أن يسموهَا «أرضَ الناسِ الطيبينَ» «Land of Good People»، كما سَمُّوا نهرهَا الصغيرَ: «نهرَ النحاس» «Copper River».

وسارَ المغامرونَ شمالاً حتى كشفُوا شاطئًا وَطيئًا تُغَطيه غاباتٌ كثيفةٌ عَالية الأشجَار، وتابعُوا السيرَ حَتَّى اهتدُوا إلى مَصبِّ نهرٍ واسعٍ عُرِف فما بعد أنه نهر «كليمان». وَدَفَعهم فضولُ الكاشفينَ إلى أن يَعْرِفوا أينَ هم الآن، فألقُوا مَرَاسيهم، وَرأَوا أنَّ السفينةَ «بريو» قَدْ سَبَقَتْهُم هناكَ!

ولم تكُن الأرضُ هنا مُغايرةً لطبيعةِ الأرضِ السالفةِ الذِّكر، إلاّ فيمَا يَلوهَا مِنْ غِيَاضٍ[1] ومنَاقِع. والأشجارُ العاليةُ تَحملُ ثمرًا جَنِيًّا وفَاكهةً شهيةً، هى أكثرُ غذاءِ الوطنيينَ.

والناسُ هنَا هُم الناسُ هناكَ؛ سودُ الألوانِ، فَارعُو القوامِ. يمشونَ عُراةً إلا من خِرقة منْ نَسيج القطنِ تَسْتر سَوْءَاتهم. وفى النساءِ مَلاَحةٌ فِى الوجُوه، لولاَ ما يُشَوهها منْ ثقبِ الشفاهِ فى ثلاثةِ مَوَاضع، حيثُ تُوضع فِى كلِّ ثقبٍ حَلَقةٌ صغيرةٌ منَ القصْديرِ.

---

(١) الغِيَاضُ: جَمع غيضة وهى مُجتمع الشجر فى مغِيض الماءِ.

وسُرَّ هؤلاء المواطنونَ برُؤْية هؤلاءِ الغرباء الوافدينَ، فأنزلُوهم فِى قَوارب غَرِيبة الشكلِ، وأوصَلُوهم إلى قراهُم الصَّغيرة، ليحملُوا منها مَاءَ الشربِ الذِى كانَ دائمًا موضعَ تفكِيرهم وتَدْبيرهم.

ولما اطمأنَّ البرتغاليونَ فى هـذِه الأرضِ يومـين أو ثلاثـة جـاءهم اثنانِ منَ الزنـوجِ تبـدُو عليـهما أمـاراتُ الرياسـة، وكـانَ فيـهما مـن الكبرياءِ والأنفَةِ ما رفضَا معه هدايَا الملاحينَ، احتِقَارًا لها واستِصْغارًا لشأْنها! وكانَ فى ملابسهمَا المزرْكشة وعمامتيهمَا الموشَـاتين بـالحريرِ ما يدلُّ عَلى ثرائهمَا. ومعهمَا شابٌّ ثالثٌ فَهِمَ البرتغاليونَ منه بالإشارةِ أنَّ سفنًا كبيرةً كسُفنهم قَدْ مرت بالشَّاطئ منْ قبل ورآها رأْى العينِ. وهنا داعبَ الأملُ قلوبَ البرتغاليينَ واستبْشَروا بأنهم منْ غَايتهم عَلى طَرفٍ قريبٍ.

وقَضَى الملاحونَ فى مصبِّ نهر «كليمان» «Kiliman River» اثنـينِ وثلاثينَ يومًا، يَخْـتزِنُونَ منـه المـاءَ، وينظِّفـونَ السـفنَ، ويصلحـونَ صَارى السفينةِ «سان رافايل» الذِى كانَ قد تهشَّمَ علـى إثـرِ إعصـارٍ سابقٍ عنيفٍ.

ووقَعَ أغلبُ الملاَّحينَ هنـا فريسـةً للمـرضِ، فقـدْ وَرمَـت أيديـهم، وانتفخَـت أقدامُـهم، وَنتـأَتِ[1] اللَّثـةُ مـنِ فـوقِ أسْـنَانهم، إلى حـدٍّ لم يسـتطيعُوا معـه أن يـأكلُوا طَعَامـهم، ولم يكـنْ هـذَا غـير مـرضِ

(١) نتَأَ الشَّىءُ: ارتفَعَ وَبَرَزَ فِى مَكَانِهِ. وَخَبُثَتْ رائحتُهُ.

«الأسقربوط» الذى يحدثه سوءُ التغذيةِ، والذى تعرضَ له روّاد البحار منذُ أقدمِ الأزمنةِ.

وأقامَ الملاحونَ هنا نصبًا تذكاريًا أسموه «نصب سان رافايل»، تخليدًا للسَّفينةِ التى حَمَلته، وهى إحدى السفنِ التى شَارَكت فى هذه الرحلَةِ، وأسموا النهرَ نهر «البشرى الطيبة» «River of Good Tokens». واتَّجَه الملاحونَ فى أعماقِ المحيطِ إلى الشمالِ الشرقى، فاكتشفُوا ثلاثَ جُزر صغار فى وسطِ اللُّجَجِ..وقد غطّت الأشجارُ العاليةُ اثنتيْنِ منها، بينمَا بقيت الثالثةُ والصغيرةُ قاحلةً عاريةً. ولم تكنِ المسافةُ بينهَا عَلى أبعادٍ كَثيرةٍ.

على أرض موزمبيق

يأبى الربيعُ الفاتنُ إلاَّ أنْ يطلعَ بسحرٍ جديدٍ. ففى شهر مارس سنة ١٤٩٨ بينما كانَ «نيقولا كويليو» ربان الباخرة «بريو» يحاولُ أنْ يدخلَ خليجًا منَ الخلجَان، أخطأَ الطريقَ، وكان الخليجُ يُؤدى إلى أرضٍ فى جزيرةٍ جديدةٍ، وحاولَ الملاحونَ أن يرسُوا سُفُنهم بناءً على إشاراتٍ منْ قواربَ كانت تُحَيِيهم، واقتربَ بضعةٌ منْ هؤلاءِ المواطنينَ يُغنونَ عَلى النياتِ[1]، واقترحُوا عَلى البرتغاليينَ أن يتقدمُوا فى الخليجِ قليلاً قليلاً ليستطيعُوا النزولَ عَلى مرفأٍ أمينٍ.

(١) النَّاياتُ: جَمعُ نَايٍ. وهو آلةٌ مِنْ آلاتِ الطَّرَب ينفخُ فيهَا فتحدثُ نغما شجيًا.

وصعدَ هؤلاءِ الوطنيونَ إلى سفنِ البرتغاليينَ، فأكلُوا مِنْ طَعَامهم، وشربُوا منْ شَرَابهم، ونزلُوا بعدَ أنْ مَلَئُوا البطونَ..

وأراد «فاسكو دى جاما» أنْ يتعمقَ الدخُولَ فى الخليجِ ليعرفَ أىَّ صنفٍ منَ الناسِ ألقتْ بهم الأقدارُ فى طَرِيقه. وكانَ عَلى «نيقولا كويليو» أنْ يختبرَ الأرضَ ويجس الأعماقَ عندَ مدخلِ الخليج، حتى يكونَ هاديًا للسفينتيْنِ الأُخريين منْ وَرَائه. وبينمَا هو يستعدُّ للدخولِ اصطدمَ برأسٍ بارز فى البحرِ فانكسرَ مقْبضُ الدفةِ بينَ يَدَيه، وهنَا أدركَ الخطرَ فأدارَ السفينةَ ثانيةً إلى الماءِ العميقِ.

وألقَى البرتغاليونَ المراسيَ على بُعدِ ميلينِ منَ الأرضِ، ولم يكنْ هؤلاءِ المغامرونَ يَدْرونَ بعد أنهم فِى «موزمبيق» «Mozambique».

ورأى الزائرونَ فى أهلِ هذِه الأرضِ حُمرةً نحاسيةً فِى ألوانهم، ومتانةً فِى بناءِ أجْسَامهم، وعرفُوا أنهم مُسلمونَ، يعتنقونَ دينَ محمدٍ (ﷺ) ، ويتكلمونَ لغةَ العربِ، ويرتدونَ ثيابًا من رقيقِ الكتانِ، ولطيفِ القطنِ، وهى مُزَرْكشة بالخطوطِ الملونةِ الزاهيةِ، ومُزَينة بالوشْى الجميلِ، ويضعونَ عَلى رُءُوسهم «طَوَاقى» مُطَرزة بأسلاكِ الذهبِ وخيوطِ الحريرِ.

ويحترفُ أهلُ مُوزمبيق التجارةَ، ويتعاملونَ مع تجار العربِ الذينَ كانَ لهم فى ذلك اليومِ بالذاتِ أربعُ سفنٍ تجاريةٍ راسيةٍ عَلى الميناء، مُحَمَّلة بخالصِ النضار[1]، والفضّة، والقرنفلِ، والفلفلِ،

(١) النضار: الذهب.

والزنجبيلِ، وخَوَاتم الفضّة، فوقَ كمياتٍ منَ اللآلئ، والجواهرِ، واليواقيتِ.

وعرفَ البرتغاليونَ أنَّ هذِه النفائس والجواهر والأفاويه[1]، وكريم المعادنِ - عدَا الذهبَ - تردُ منْ بلادِ الهندِ التِى يقصِدُونها؛ فسالَ لُعَابهم، وتحركَت أشوَاقُهم، وهاجَت ذكرياتُهم لهذِه الأرضِ البعيدةِ، التِى يقومُ تجارُ العربِ بنقْلِ متاجرهَا إلى أسواقِ العالمِ المعروفِ فى ذلكَ الزمانِ!

سمعَ البرتغاليونَ أكثرَ منْ هذَا - والشوقُ يَحْرِقهم! - أنَّ تلكَ البلادِ البعيدةِ التى يقصدُونها تكثرُ فيهَا هذهِ النفائس كثرةً لا يحتاجُ معهَا إلى شراءٍ! وأنَّ المرءَ العادِى منَ الناسِ يستطيعُ أنْ يجمعَ منها فى السلالِ مَا يشَاء!

آه! هنَا نسِىَ البرتغاليونَ المغامرونَ أهوالَ البحرِ، وعَصْفَ الرياحِ، وضَرَاوةَ سباعِ البحرِ، وعُنْفَ التيارات البحرية، والحاجةَ إلى الماءِ العذبِ فى غَمَرَاتِ المحيطِ، ودَاءَ الأسقربوطِ الذِى يُشقِقُ الشَّفَةَ، ويبرزُ اللِّثة، ويورِّم الأيدِى والأرجُل!

نعم هنا نَسُوا كُلَّ شىءٍ! حتى تلكَ المؤامرةِ التِى كانَ قد دبرهَا بعضُهم بعدَ بلوغِ رأسِ الرجاءِ الصَّالح بقليلٍ، ليرغمُوا «فاسكو دى جاما» على العودةِ بهم إلى وطَنهم وهم فى مُنتصفِ الطريق!

---

(١) الأفاويه: التوابل.

إنهم الآن فى طَرِيقهم إلى أرضِ اللآلئِ والجواهرِ والأفاويهِ والثراءِ الكثيرِ! فلمَ لا يصْبرونَ، أو عَلى الأقلِّ، يُوطِّنونَ النفسَ على الصبرِ وتَحَمُّلِ وَعْثَاءِ[1] الطريقِ؟

وكانَ معهم ملاّحٌ يعرِفُ قليلاً منَ العربيةِ ويفهمهَا حينَ يسمعهَا، فسمعَ من أنباءِ الهندِ ما أكَّدَ لهم ما سَمِعوهُ قبلَ مُغَادرتهم ميناء لشْبونة.

(١) وَعْثَاءِ الطريق: مَشَقَّات الطَّريق وَمتاعبه.

غارات البرتغاليين

كانَ يحكُمُ موزمبيق فِي ذلكَ الزمانِ حاكمٌ مُسلمٌ يُلقَّبُ بالسُّلطانِ، وكثيرًا ما صَعَدَ عَلى ظهرِ السفنِ البرتغاليةِ الثلاث مَصْحوبًا برجالِ حَاشيته، وقدْ بالغَ الملاّحُ الأعظمُ فِي إكْرامه، وأولمَ له منَ الوَلاَئِمِ مَا حفَلَ بشهى المآكلِ؛ وقدّمَ له ألوانًا منَ الهدايَا كالقَلاَنِسِ[1]، والثيابِ الفارسيّة الغاليةِ، والمرجانِ وَغَيرهَا، مما حصلَ عليه من أسواقِ مُوزمبيق؛ ولكنْ مَا قيمةُ هذِه الهدايَا إلى سلطانٍ عنده منهَا ومنْ أشباههَا الكَثير؟ لقد قابلَ السلطانُ هذِه الهدايَا بعينِ الازْدِرَاء! وبَاهَى بأنه لا يقيمُ لَهَا وَزنًا! ورغبَ لو قُدِّمت إليه الثيابُ القرمزيةُ الزاهيةُ! التِي لم يكنْ فى حَوزةِ البرتغاليينَ منهَا كثيرٌ ولاَ قليلٌ!

وعَلى الرغمِ منْ ذلكَ الإبَاء فقد صممَ الملاحُ «فاسكو» عَلى أن يقدمَ للسلطانِ المسلمِ منْ كلِّ ما تحمِلُه سفَائِنُه[2]، ولعلّه اتبعَ فِي ذلكَ المثلَ العربىَّ الشهيرَ: «خيرُكُم منْ جَاد بما عِنْدَه»!!

وفِي يومٍ منَ الأيامِ دعَا «فاسكو دى جاما» سلطانَ مُوزمبيق إلى وليمةٍ شهيةٍ حَفَلت بالتينِ والحلوى التِي كانَ السلطانُ يحبهَا حبًّا جمًّا؛

---

(١) القلانس: جمع قَلَنْسُوة، وهى لباسٌ يُوضعُ على الرأس.

(٢) السَّفِينَةُ: الفُلْكُ. والجمع: سُفُنٌ، وسَفَائِنُ.

وعندَمَا ساغ الطعامُ فـى حلـقِ الضيـفِ المسلمِ سأله «فاسكو» أن يتفضّلَ فيقدمَ إليـه رَجُلين يصحبانِ الركبَ المخاطرَ فِى البحار ليدلاَّه عَلى الطريقِ إلى الهندِ. وقَبِلَ السـلطانُ طلبَ القائدِ البرتغالى عَلى شروطٍ اتفقَا عليهَا؛ وكانَ من شروطِ الملاحِ الداهيةِ أنه إذَا نزلَ أحدُ الدليلين إلى البرِّ فإنَّ الآخرَ يبقَى عَلى ظهرِ البحْرِ!

وفـى العاشـرِ مـنْ شـهرِ مـارس نَشَـرت السـفنُ شـراعهَا، ورمَـت المراسِىَ فى الماءِ قريبًا منْ جزيرةٍ مُجَاورة، حيـثُ أُقيـم عَلـى ظـهور السفنِ الثلاثِ حَفْلٌ دينى كبيرٌ. وانتهزَ أحـدُ الدليلـينِ هَـذه الفرصـةَ السـانحةَ فـنزلَ إلى الجزيـرةِ وآثـرَ البقـاءَ فيـهَا، ورفـضَ العـودةَ مَـعَ البرتغاليينَ! وأرسلَ القائدُ الجرىءُ قَـاربيْنِ مُزَوديـنِ بالسـلاحِ للبحـثِ عـنْ هـذَا الدليـلِ الهاربِ، وركـبَ هـو نفسُـه أحـدَ القـاربينِ، وأمـرَ «نيقولا كويليو» أن يركبَ القاربَ الآخرَ.

وفى خلالِ البحثِ جاءتْ بضعةٌ منَ القـواربِ مـنْ أرضِ الجزيـرةِ، وهـى مشـحونَةٌ بالرجَـالِ المسـلحينَ بالقِسـىِّ والسـهامِ الطويلـةِ والتروسِ القويةِ، وأمـرُوا - بطريـقِ الإشـارةِ - القـائدَ وزميلَـه بـأنْ يبادرُوا العودةَ إلى المدينةِ. ولم يجدْ «فاسكو دى جاما» بُـدًّا مـنْ إطـلاقِ النيرانِ عَلى هَذِه القواربِ.

وكانَ «باولو دى جاما» - شقيقُ الملاّحِ الجرىءِ - باقيًا فـى السـفنِ الثلاث يحرسهَا منْ أنْ تصابَ بسوءٍ، فلمْ يكـدْ يسـمعُ الطلقـاتِ حتـى أدارَ دَفَّـةَ السـفينةِ «بريـو» ليخـفَّ إلى النجـدةِ، وأطلـقَ مـن نـيرانِ

المدفعيةِ مَا أثارَ الرعبَ فى قُلُوبِ العـربِ، الذيـنَ أسرعُوا إلى الأرضِ قبلَ أنْ يُدْرِكَهم الطالبونَ..

وعادَ البرتغاليونَ إلى مَرَاسيهم بعدَ حادثِ الهربِ العجيبِ.

ودهـشَ البرتغـاليونَ مـنْ سـفنِ العـربِ فـى هـذِه البـلادِ صناعـةً وحجمًا، فألواحُـهَا غـيرُ مُسَـمَّرة بمسـاميرَ، وقلوعُـهَا مصنوعـةٌ مـنْ أليـافِ جـوزِ الهنـدِ، وملاحُوهَـا يحملـونَ معـهم البوصْلـة البحريـةَ، والمزَاولَ[1]، والخرائطَ الجغرافيةَ.

وقايضَ البرتغاليونَ ببعضِ مَا معهم مـنَ السلعِ عَلـى ثمار جـوز الهندِ، والقثَّاء، والخيار، والشَّمام التى رأوهَا هنا بكمياتٍ وَافِرة.

وأقامَ البرتغاليونَ فى جَزِيـرة «سـان جـورج» بعـضَ الوقـتِ، وإذَا برسالةٍ تَأْتيهم منْ سلطانِ مُوزمبيق بأنه يودُّ أنْ يكُونـوا معـه علـى سَلاَمٍ، وأنْ تقومَ العلاقةُ بينه وبينهُم عَلى أساسٍ مِنَ الصَّدَاقة، وكان سفيرُه إليهم أحد أشراف العربِ، الذينَ كانُوا - فى الحق - عَلى فرعٍ منْ هؤلاءِ الغرباءِ الوافدينَ.

وَلَمَّا هَمَّ البرتغاليونَ بالرحيلِ جريًا وراءَ هَدَفهم الأصيـلِ، وجـدُوا الريحَ غيرَ مُوَاتيةٍ لهم، فرأَوا أن لا مناصَ منَ الدخولِ ثانيةً إلى ميناء مُوزمبيق للتزوُّدِ بماءِ الشربِ الذِى كانُوا فى حَاجةٍ إليه، لأَنَّ المـاءَ فـى

---

(١) المِزْوَلَةُ: الساعةُ الشَّمْسيَّةُ التى يُعيَّنُ بـها الوقتُ بظلِّ الشاخص الذى يُثبت عليها. والجمع مزاول.

غيرِ موزمبيق كان آسنًا[1] لا يصلحُ لشرابٍ، ولا ينفعُ لطعامٍ. ودخَلُوا الثغرَ التِّجَارى العتيقَ عندَ الأصيلِ. وأخذ القائدُ نفسُه، والربانُ «نيقولا كويليو»، وبعضُ رجَالهم يبحثونَ عنِ الماءِ، حتى امتدَّ بهم البحثُ إلى منتصفِ اللَّيل.

وكانَ معهم دليلٌ عربيٌّ عَرضَ خِدْمته عليهم بما لهُ منْ أسفار فى البحرِ الأحمرِ والمحيطِ. ولم يكنْ له معهم غيرُ أيامٍ، فانتهزَ هذه الفرصةَ - فرصةَ البحثِ عنِ الماءِ - لينجوَ بنفسِه منهم بعدَ أنْ مَلَّ المقامَ معهم!

وظلُّوا يبحثونَ عنْ مَوْردٍ للماءِ، وطالَ بهم البحثُ حتى أشرقتْ شمسُ اليومِ التالِى، فعادُوا إلى السفنِ بغيرِ ماءٍ ولا سِقَاءٍ!

وفى مساءِ اليومِ عادَ الظامئونَ الباحثونَ عنِ الماءِ إلى بحثِهم، فلمَّا قاربُوا مَوْردَ الماءِ العذبِ رأوا جماعةً منَ الرجالِ عَلى الشاطئِ ومعهم حرَابهم ورمَاحهم ليمنعُوهم منَ النزولِ. وهكذا يفعلِ الشَّكُّ والريبةُ فى النفوسِ؛ فإنهم لم يمنعُوا الماءَ عنِ البرتغاليين إلا لخوفِهم منهم وريبتهم فيهم!

وهنا أمرَ الملاحُ العظيمُ بإطلاقِ النيرانِ عَلى الوطنيينَ حتى يتمكنَ هو ورجَالُه منَ النزولِ عَلى البر لورودِ[2] الماء، ولم يكدْ يسمعُ

---

(١) أسنَ المَاءُ: تغيَّرَ فَلا يُشْرَبُ.

(٢) وُرُود الماء: الوصُولُ إليه.

هؤلاءِ الطلقات حَتَّى وَلّوا إلى الغابةِ هـاربينَ، وأخـذَ البرتغـاليونَ مـنَ الماءِ العذبِ ما كَانُوا يَشْتهونَ.

وفى صباحِ يومٍ منَ الأيامِ جَاءهم عَربىٌ يُنْذِرهم بأنـهم إذَا أمعَنُـوا فِى طلبِ الماءِ أكثرَ مِنْ هذَا فإنهم يتحمَّلُونَ وحْدهم نتائجَ مخاطرتـهم التِى لا تعودُ عَليهم بنفعٍ. فلمَّا سمعَ «فاسـكو دى جامـا» هـذَا التـهديدَ الملفوفَ صَمَّمَ عَلى أن يَرِدَ الماءَ مـهمَا كـانتِ النتـائج، حتـى لا يُظـهِر الضعفَ أمامَ مُنْذِريه.

وأقامَ العربُ حواجزَ شائكةً منْ أغصانِ الأشجار، وكانتْ فِـى الوقـتِ نفسِه كأنها سِتَارٌ كثيفٌ يحجبُ مَا وراءَه منَ الوطنيينَ. وأخذُوا يذرعـونَ الشـاطئَ عَلـى مُـوَازاة السـاحلِ، وهـم مُسلّحونَ بالسـيوفِ والحـرابِ والرمـاحِ والقسِىّ والمقـاليعِ، التـى أخـذُوا يقذفـونَ بـها الحجـارةَ علـى البرتغاليينَ. ولكنَّ نيرانَ هؤلاءِ كانت أشدّ منْ أنْ يقفَ أمامهَا الوطنيونَ، فَوَلوا الأدبارَ خلفَ الحواجزِ التـى أقاموهَـا. واسْـتمرت المعركـةُ حاميـةً بينَ هؤلاءِ وهؤلاءِ قرابةَ ثلاثِ ساعاتٍ، وأسْفرت عَنْ قتيلينِ مـنَ العـربِ، أحدهمَا على شَاطئ البحرِ، والآخر خلفَ المتاريسِ.

واسْتنفدت المعركةُ قدرًا كبيرًا مـنْ جـهودِ البرتغـاليينَ، فعـادُوا إلى سُفُنهم يرِيحونَ أجسَـادهم المنهوكَـةَ، وَيَمْلئُـونَ بُطُونـهم الخاويـةَ. ولم يكادُوا يفرغونَ منَ الطعـامِ، وينتـهونَ مـنَ الراحـةِ حتـى عَـادوا إلى قَوَاربهم ليبدَءُوا الحربَ منْ جديدٍ.. إنـهم يريـدونَ أنْ يـأخذُوا بعـضَ الأسْرى منَ العربِ.

ونجحَ البرتغاليونَ فى مُطاردةِ سَفينتين منْ سُفنِ العربِ، يملكُ إحداهمَا الشريفُ العربى فِى مُوزمبيق، وكانتْ محملةً بصُنوفِ المتاعِ والأثاثِ، أمَّا الثانيةُ فكانَ عَلى ظهرهَا أربعةٌ منَ الزنوجِ، أو منَ العربِ، كما يختلفُ فى ذلكَ مُدوِّنُ الرحلةِ بينَ حينٍ وحينٍ.

أما السفينةُ التى كانَ فيها هؤلاءُ الأربعة فقدْ أسرهَا «باولو دى جاما» بمنْ عليهَا منَ الوطنيينَ، وأما الأُخرى التى تحملُ المتاعَ فقد تركهَا أصحَابُهَا حينَ بلغُوا الشاطئ، لينجُوا بأنفسِهم منَ الوقوعِ فى أسرِ المطَاردينَ.

وأخذَ البرتغاليونَ يفحصونَ المتاعَ الذِى نهبوهُ منْ سفينةِ العربِ، حتى يقتسمُوا الغنيمةَ بينهم؛ فوجدُوا فيه قماشًا منَ القطنِ، وسلالاً منْ سَعَفِ النخيلِ أو النارْجِيل، وَقُدُورًا كبيرةً مملوءةً بالسمنِ، وقواريرَ مملوءةً بالعطور والماءِ المعطرِ، وكتبًا فى الفقهِ الإسْلامى، وصُندوقًا مملوءًا بلفافاتٍ منْ نسيجِ القطنِ الرقيقِ، وشبكةً منْ غزْلٍ مَتينٍ، وسلالاً وجِفَانًا[1] مَشْحونة بحبوبِ الذرةِ العويجةِ التِى تنبتُ بكثرةٍ فى هَذه البلاَد.

واحتفظَ «فاسكو» بالكتبِ العربيةِ ليحملَهَا معه عندَ عودتهِ إلى بلاَدِه ليقدمهَا إلى ملكِ البرتغالِ، أما بقيةُ المتاعِ والزادِ فقد قَسَّمه القائدُ عَلى مَلاَّحيه جميعًا فى السفنِ الثلاثِ.

---

(١) الجَفْنَةُ: القَصْعةُ. والجمع: جِفَانٌ. وجِفَنٌ.

وكأنَّ الغنائمَ والغاراتِ قد أَغْـرَتْ[1] المـلاحَ البرتغـالى المغـامرَ، فقـامَ بحملةٍ جديدةٍ عَلى إحْدَى القرى، وكانَ الوطنيونَ يتحَاشونَ أن يجمعُوا جُمُوعهم عَلى الشـاطئ حتـى لا يصـيرُوا هدفًـا لنـيرانِ البرتغـاليينَ، وعَلى الرغمِ منْ ذلكَ لم يتورَّعْ هؤلاءِ منْ إطلاقِ المدافعِ، ثم عادُوا إلى سُفنهم آمنينَ. وتركَ البرتغاليونَ المدينةَ، وألقُوا مَرَاسِيهم قريبًـا مـنْ جزر سَان جُورج الصَّغيرة، حيثُ بقُوا هناكَ ثلاثةَ أيـامٍ ينتظـرونَ أن تهبَّ عليهم ريحٌ طيبةٌ تحملُهم إلى الهدفِ البعيدِ..

وطَوَاهم البحرُ أيامًا أُخرَ، ما بينَ ريـحٍ عـاصفٍ، وتيـاراتٍ شـديدة القُوة، إلى أنْ بلغَ بهم المطافُ فِى أولِ يومٍ منْ أبريل إلى مجموعـةٍ مـنَ الجزر قربَ الشاطئ، وقدْ أَسموا أُولى هذِه الجزر «جزيرة الرجـل المجلـود» «The Isle of the Flogged One» لأنـهم جَلَـدُوا عليـهَا الدليـلَ العربـى الذِى قررَ لهم أَنَّ هـذِه الجزيـرة هـى أرضُ القـارةِ الإفريقيـة نفسـهَا! وقد أيقنُوا أنه ضَلَّلَهم - لحاجةٍ فـى نفـوسِ العـربِ - فكـانَ جـزاؤُه الضرب بالسَّوطِ..

وقد لفتتْ كثرةُ هذه الجزر أنظارَ البرتغـاليينَ، كمـا لفـتَ نظرَهُـم شدةُ التشـابهِ بينـهَا جميعًـا إلى حـدٍّ لم يسـتطيعُوا معـه التمييـزَ بـينَ جزيـرةٍ وأُخـرى. وكـانت مُزدحمـةً بالسـكانِ الذيـنَ يحـترفونَ البحْـر، ويشتغلونَ بالقواربِ التِى تَجْرِى دائمًا بينَ هذِه الجزر وبـينَ الشَّـاطئ الإفريقى.

---

(١) أغرى فُلانًا: حمله على العداوةِ، أو على عمل شىء.

ومضَتِ الأيامُ بالركْبِ المغامرِ تَدْفعهم موجةٌ وتُخْذِيهم أُخرى، حتى لمحُوا وهم عَلى ظهور السفنِ بلادًا واسعةً مُنْبَسِطَةً، وعلى مَقْربةٍ منها جزيرتان أحاطَت بهما مخاضَاتٌ[1] من الماءِ الضَّحل، الذِى لا تقدرُ السفنُ الكبيرةُ عَلى خَوْضه خشيةَ الجنُوح.

وكانت الريحُ منَ الشدة هنَا بحيثُ لم يَسْتطع الملاّحونَ الكاشفونَ أنْ يرسُوا عَلى واحدةٍ منْ هذِه الجزر، وعرفُوا منْ دَليلهم أنها تسكنهَا كثرةٌ مِنَ النصَارى، فصمَّمُوا عَلى المضِى شمالاً، قاصدينَ مدينةَ «منبسة» «Monbasa» التِى عرفُوا منَ الأدلاءِ والخبراءِ أنهم منها عَلى مَسَافة أيامٍ أَرْبع، إذَا كانت الريحُ رُخَاءً[2]، والظروفُ مُوَاتيةٌ.

هدايا سلطان منبسة

وبلغَ البرتغاليونَ ثغرَ منبسة، فألقوا مَرَاسيهم فِى الماءِ، ولكنهم لم يدخلُوا الميناءَ نفسَه. وَمَا كَادت تقعُ عَليهم عيونُ أهلِ هذَا الثغرِ حَتى وصلَ إليهم قاربٌ ذُو شراعٍ مُربعٍ يحملُ عددًا منَ العربِ، وقد زُينت سفنُ الثغرِ بالأعلامِ الزاهيةِ، احتفاءً بمقدمِ هؤلاءِ الوافدينَ. ولم يشأْ «فاسكو» ورجَالُه أن يكونُوا أقلَّ مجاملة منْ أهلِ البلادِ فَزَيّنوا سُفُنَهُم الثّلاث زينةً فاقتْ زينةَ الوطنيينَ.

---

(١) المخاضُ: الموضعُ القَليلُ الماء الذى يعْبُرُ فيه النَاسُ النَّهر مُشَاة ورُكْبانًا. والجمع: مخَاضٌ. ومخاوضُ.

(٢) الرُّخَاء: الريحُ اللَّيِّنة.

وكانَ غرضُ «فاسكو» من هذا المهرجانِ البحْرِى الجميلِ أن يتودَّدَ إلى قلُوب العربِ والمواطنينَ، لعلّه يظْفرُ منْـهم بجماعـةٍ يدلّونـه عَلـى الطريقِ، وخاصّةً بعدَ مرضِ القِلَّةِ التى كَانتْ معه.

وطالما تمنَّى «فاسكو» ورجالُـه أن يجِدُوا فـى مدينـةِ منبسـة هـؤلاء المسيحيين الذينَ حدَّثهم عنهُم الأدلاَّءُ منْ قبل، ولكنـهم لم يجِدُوا فـى هذا الثغرِ التجَارى إلا أقوامًا يدينونَ بالإسْلاَم.

وفى منتصفِ ليلٍ منَ ليالِى الصيفِ تَطلَّعَ البرتغـاليونَ حَوَاليـهم وهم على ظـهرِ سُـفُنهم الراسـيةِ فـى المـاءِ، فـإذَا قـاربٌ يحمـلُ أكـثرَ منْ مائةِ رجـلٍ مُدَجَّجـينَ بالخناجرِ والسـيوفِ القصـيرةِ والـتُّرُوس. ولما قاربُوا السفينةَ «سان جابرييل» التِى كـانَ يقودهَـا «فاسـكو دى جامـا»، أرادُوا أن يصعدُوا عليـهَا جميعًـا وهُـم فـى هـذِه البـزةِ الكَاملـةِ مـنَ السِّلاَح. ولكـنَّ المكتشِـفَ البرتغـالى الدَّاهيـةَ لم يـأذنْ إلا لبضعَـةٍ مـنْ أعيَانهم يمثلُونهم أمامَه. وظلَّ الممثلونَ أكثرَ منْ سـاعتينِ يتفـاهمونَ بالإشارةِ تَارةً، وببعضِ الكلماتِ الَّتِـى فُـهِمتْ - بصُعُوبـة - مـنْ هنَـا ومنْ هناكَ تَارةً أُخرى، حَتى انتهَت الزيارةُ التِى فَهِمَ منهَا البرتغاليونَ أنـها كَـانت للاستِطْلاَع، واستكشَـافِ مـا وراءَ هـذِه السـفُن الثـلاَث الراسِيَات منْ أغراض!.

وأرادَ سلطانُ منبسة أَنْ يؤكدَ للملاَّح البرتغالى الجرِىء صدقَ نيتـهِ فأهدَى إليه بعضَ الأغنامِ، وقدرًا كبيرًا منْ فاكهـةِ البرتقـالِ، وكميـةً

منَ اللَّيمونِ، وحِمْلا من قصَب السكرِ، وخاتمًا كأنه عهْد الأمانِ! وأكَّد له أنه سيجدُ فِي الميناءِ - حينَ يَنْزله - كُلَّ ما هو فى حاجةٍ إليهِ. وكان يحملُ هذِه الهدايَا منَ السلطان المسْلمِ اثنانِ من رَعَاياه المسيحِيينَ.

وردَّ «فاسكو دى جَامَا» عَلى الهديةِ بمسبحَةٍ منْ حَبِّ المرجَان، مخبرًا السلطانَ أنه ينوِى أن ينزلَ الميناءَ فى اليومِ التَّالِى.

وأرسلَ «فاسكو» اثنينِ منْ رجالهِ إلى السلطانِ ليؤكدَا له حسنَ نيةِ البرتغاليينَ، وسلامةَ قصْدهم، وأنهم قومُ سلامٍ لاَ قَوْم حُروب! فلمَّا نزلَ الرسولاَن إلى البر تبعتهمَا جموعٌ منَ الوطنيينَ حتى بلغُوا بهمَا أبوابَ القصرِ السلطَانى.

ولم يكُن الوصولُ إلى مَقَر السلطانِ بالقصرِ شيئًا سَهْلاً، فقد كانَ عَلى الرسُولين أنْ يمرا خلالَ أربعةِ أبوابٍ ضخامٍ عَلى كلٍّ منها حارسٌ يحملُ فى يده سيفًا مسلولاً معدًّا للقتال.

وأكرمَ السلطانُ وفَادَةَ[1] الرسُولينِ، وأمرَ أن يُعَدَّ لهما برنامجٌ لزيارةِ المدينةِ ورُؤْية معالمهَا، ومرَّا بالزيارةِ عَلى منزلٍ لاثنينِ منَ تجَار النَّصارى، فلمَّا فرغَا منَ الزيارةِ أعادهمَا السلطانُ إلى السفنِ البرتغاليةِ الراسيَة، مُحملين بأحمالٍ منَ القرنفلِ، وحَبِّ الفلفلِ، والقمحِ وغيرهَا منَ السلعِ التِى وَدَّ السلطانُ أن يملئُوا سفنَهُم بهَا !

---

(١) وَفدَ عَلى القوم وإليهم: يَفِدُ وَفْدًا، ووُفُودًا، وَوفادَةً. والجمعُ وُفُود.

وفى اليومِ التالى - حينما هَمَّ «فاسكو» بأنْ يرسى سفنَهُ فِى الميناءِ نفسِه - خَشِى أن يكونَ فى سُلوك بعض الأدلاَّء العربِ مَا فيه مُعاكسة له وإحْبَاط لخططِهِ، وكانَ هؤلاءِ الأدلاَّء ممن أسَرهم «باولو دى جاما» فى ميناءِ مُوزمبيق. وأرادَ «فاسكو» أن يستجوبَ اثنينِ منْ هؤلاءِ العربِ ليلاً، فلجأ إلى تعذيبهمَا حتى ينتزعَ منْهُمَا اعْترافًا، وكانت طريقةُ تعذيبهِ مما لا تُقِره قوانينُ الرحمةِ، ولا أصولُ المبادِئِ الإنسَانية. فأمرَ أن يُصَبَّ عَلى جلودهمَا الزيتُ المغلى، واعترفَ الدليلانِ - تحتَ قساوةِ التعذيبِ ووَحشيته - أنَّ النيةَ كانت مُبيتة لأسرِ البرتغاليينَ فى الميناءِ، انتقامًا منهم لما صَنعوه معَ العربِ والوطنيينَ فِى مُوزمبيق.

وكررَ «فاسكو دى جاما» عمليةَ التعذيبِ مرةً أُخرى، لعلَّه ينتزعُ منْ أفواهِ الدليلينِ اعترافًا جديدًا، فألقى أحدهمَا بنفْسِه فى ماءِ البحرِ وهو مربوطُ اليدينِ، وتبعهُ الآخرُ عندَمَا لَمِعَتِ الخيوطُ الأُولى مِنَ الصباحِ..

العرب يتوجسون شرًا

لم يطق العربُ صبرًا على فعلاَتِ البرتغاليينَ. والحقُّ أنهم كَانوا يتوجَّسُونَ شرًّا منْ هؤلاءِ القومِ الوَافدينَ، ولم يَطْمئنوا إليهم لحظةً منذُ رأَوْهُم، والآن قدْ تأكَّدَ لهم سوءُ نياتهم، بما صَنَعوه أخيرًا معَ الدليلينِ العربيينِ اللذينِ جلبوهُما مع غيرهمَا منْ مُوزمبيق.

وَأسَرَّ العربُ فِى أَنفسِهم أمرًا، وأعدُّوا العدّةَ للانتقامِ منْ هؤلاءِ القساةِ الطَّامعينَ. وفى منتصفِ إحدَى اللَّيالِى ظَهرت عَوَّامةٌ تحملُ عددًا عديدًا منَ العربِ، واقتربَت منْ سفنِ البرتغاليينَ، ونزلَ منها الرجالُ يعومونَ فى مهارةٍ وخفةٍ كأنهم الحيتانُ، واتجَه بعضُهم إلى السفينةِ «بريو» كما اتجهَ البعضُ الآخرُ نحوَ السفينةِ «سان رافايل».

وبدأَ العربُ يغوصونَ تحتَ الماءِ ويَطْفونَ، فلمَّا بلغُوا السفنَ أخذُوا يقطعونَ حبالها فى خفةٍ وسرعةٍ، حتى ظنَّ الحراسُ الليليونَ الساهرونَ فى ظلامِ الليلِ ووحشةِ البحرِ أنَّ نوعًا من سمكِ «التونة» الكبيرِ هو الذِى يقطعُ الحبال! فلما تبينُوا خطأَهم صاحُوا، واستيقظَ الربابنةُ والبحارةُ، فإذَا هم يرونَ العربَ السباحينَ قريبينَ من قلُوعِ السفنِ يحاولونَ تمزيقهَا، ومنَ الصوارى يحاولونَ تحطيمهَا.

فلمَّا خشى العربُ عَلى أنفُسِهِم أن يقعُوا فىَ يدِ البرتغاليينَ، آثروا أنْ ينزلقُوا إلى ماءِ البحرِ فى خفةٍ، وَطَوتهم اللججُ فِـى الأعمـاقِ، لأنـهم فِى الغوصِ فِى بطنِ الماءِ، أَمْهر منهم فى العومِ عَلى سَطْحه.

ولم يهدَأ العربُ لحظةً عنِ الانتقامِ بمثلِ هَذِه الطرق، حتى أَزعجُوا البرتغاليينَ. ولكنَّ هؤلاءِ احتملُوا كُلَّ هذِه المنغَّصَـاتِ يومـينِ أو ثلاثًـا لعلَّـهم يَظْفـرونَ ببعـضِ الأدلاَّءِ الذيـنَ يصحَبونـهم ليدلُّوهـم عَلَـى الطريقِ إلى الهندِ.

وفى صباحِ يومٍ نشرَ البرتغاليونَ قلُوعهم فِـى طَريقِـهم إلى الهـدفِ المنشُود، فلمَّا كانتِ الريحُ ساكنةً سـكونًا لا يسـتطيعونَ معـه مضيًّـا فى البحرِ، اضطُروا أنْ يلْقوا المراسى فى مكانٍ قريبٍ مـنَ الشـاطئِ الإفريقى يبعدُ عنْ منبسة ثمانية فراسِخ. وفى فجرِ اليـومِ التـالى رَأَوْا قاربينِ فى عرضِ المحيطِ عَلى بعدٍ منهم، فحاولُوا مُطاردتهما لعلـهم يأسرونَ منْ رجالهمَا منْ يجدونَ فيه دليلاً عَلى الطريق.

ونجحَ المكتشفونَ فى هذِه القرصنةِ البحريةِ التى أَدَّت إلى نجاحٍ كثيرٍ منَ الاستكشَافَات! فبينما هربَ منهم أحـدُ القـاربيْنِ إذَا بـالآخرِ يقـعُ فِى قبضَتهم، وإذَا هم يجدونَ فيه مـنَ الغنـائِم والسـبايَا سـبعةَ عَشـر رجلاً، وأثقالاً منَ الذهبِ، وأحمَالاً منَ الفضةِ، وقدرًا كبيرًا منَ المُـؤنِ، كما وجدُوا امرأةً عربيةً شابةً، عرفُوا أنها زوجَة لأحدِ أمـراءِ العـربِ فِى هذهِ البقاعِ. وذُعرَ العربُ منْ هـذه الغـارةِ التِـى لم تكـنْ لهـم فـى

حساب، فألقوا جميعاً بأنفسهم فى مياهِ البحرِ، حتى لا يقعُوا فى يدِ الأعداءِ. ولعلَّ حادثَ التعذيبِ بالزيتِ المغلى كانَ يرنُّ فِى آذانهم، أو يتمثلُ أمَامهم. ولكنَّ البرتغاليينَ التقطُوهم منَ البحرِ واحدًا بعدَ واحدٍ.

وعندَ غروبِ شمسِ ذلكَ اليومِ ألقى البرتغاليونَ مَرَاسيهم عَلى مَرْمَى سهمٍ منْ أرضٍ تُسمى «ملندة» «Milandi» تبعدُ عنْ منبسة ثلاثينَ فرسخًا، وأخْبرهم الملاَّحونَ العربُ الذينَ كانُوا أسْرى هذِه الغارة البرتغاليّة أنَّ فِى مدينةِ ملندة - أو فى ثغرهَا - أربعةٌ منَ السفنِ الكبار يملكهَا جماعةٌ منْ نصارى بلادِ الهندِ، وأنَّ هؤلاءِ قد يستطيعونَ أنْ يزودُوا البرتغاليينَ بأدلاَّء منهم يطمئنونَ إليهم ويثقونَ فِيهم، كما يزوِّدُوهم بالماءِ العذبِ والوقودِ وكل ما هم فى حَاجةٍ إليه.

وحرصَ «فاسكو دى جاما» عَلى أنْ يأخذَ منْ ملندة حاجَتَهُ منَ الأدلاءِ والوقودِ والماءِ، وألقى المراسى قربَ الثغرِ عَلى بعدِ نصفِ فرسخٍ منَ الأرضِ. ولكنَّ أهلَ البلادِ لم يجرءُوا أنْ يقتربُوا منْ سفنِ البرتغاليينَ وأوجسُوا منهَا شرًّا، فقد ترامَتْ إليهم أنباءُ حادثِ الغارةِ عَلى القاربِ، كما ترامَت إليهم أنباءُ رُكابه الذينَ وقعُوا أسرَى فى يدِ البرتغاليينَ.

وأرسلَ «فاسكو دى جاما» شيخًا عَربيًّا منْ أسراهُ إلى لسانٍ منَ الرملِ فِى مواجهةِ مدينةِ ملندة، حيثُ التقطةُ قاربٌ منْ قواربِ

العربِ، وأوصَلُوه إلى سلطانِ ملندة، موفدًا منْ قبلِ «فاسكو دى جاما» ليؤكدَ له أنه لا يريدُ شرًا بالبلادِ، ولا يودُّ أنْ يثيرَ حربًا، وأنه يودُّ منْ صميمِ القلبِ أن تقومَ علاقتُه معه عَلى السلامِ والوئامِ. وعادَ الرسولُ إلى «فاسكو دى جاما» ومعه فارسٌ منْ فرسانِ السلطانِ، وواحدٌ منَ الأشرافِ، وثلاثٌ منَ الأغنامِ السمانِ هديةً لأميرِ البحرِ العظيمِ!

وكانَ الرسولانِ يحملانِ إلى «فاسكو دى جاما» تحيةَ سلطانِ ملندة، وفرحَه بما عَرضَه البرتغاليونَ منْ أسبابِ السَّلام، وموافقته عَلى الدخولِ فى علاَقَاتٍ طَيبةٍ معَ البرتغاليينَ.وأبدَى السلطانُ استعْدَاده عنْ طيبِ خاطرٍ ليقدمَ إلى «فاسكو» كُلَّ ما يَطْلبه من الأدلاَّءِ والمساعداتِ التى يستطيعُ أن يقدمهَا، مما يدخلُ فى نطاقِ قُدْرته، وحدودِ طَاقته.

وردَّ «فاسكو دى جاما» بأنه يقترحُ أَنْ يدخلَ المدينةَ فى اليومِ التالِى حتى لا يَطُول به الانتظارُ فِى الماءِ. وتوكيدًا لحسنِ نيته، بعثَ معَ الرسولينَ هدايَا للسلْطان، منها مِعْطفٌ بُرتغالى، ومسبحَتَانِ منَ المرجانِ، وثلاثةٌ من الأطباقِ لغسلِ الأيدِى، وقبعةٌ، وأثوابٌ منْ نسيجِ القطنِ المخططِ، وأجراسٌ صِغَار..

وبعدَ هذا الودِّ المبذُول والهدايَا المتبادلةِ لم يكن هناكَ مفرٌّ منْ أنْ يقتربَ «فاسكو دى جاما» منَ المدينةِ. وفيَما تتهَادَى سُفُنه لهذِه الغايةِ، إذَا بالسلطانِ يبعثُ إليه على سبيلِ الهدية ستًّا منَ الأغنامِ ومعها

كميةٌ مِنْ حَبِّ القرنفلِ، والكَمُّون، والزنْجَبيل، والفلْفل، وثمار جوز الطيب، وكلها منَ التوابلِ التى يسيلُ لها لعابُ الغربيينَ! والتى كانت تباعُ بأغْلَىَ الأثمانِ فى أوربَّا عنْ طريقِ البحرِ الأحمرِ وخليجِ السويس.

وكانَ معَ الهديةِ رسالةٌ منَ السلطانِ يقترحُ فيها عَلى «فاسكو دى جاما» - فيما لوْ رغبَ فِى مُقَابلته - أنْ يلتقيا فِى الماءِ عَلى مَقْربةٍ منَ الأرضِ حيثُ يركبُ السلطانُ قاربَه، وينزلُ الملاحُ البرتغالى فى أحدِ القَوَاربِ.

وحلّ الموعدُ المضروبُ للقاءِ الرجُلين، وكانَ ذلكَ بعدَ الغداء.فإذَا بقاربِ سُلطانِ ملندة يقتربُ منْ سفنِ البرتغاليينَ، وإذَا باللاَّح البرتغالى - فِى أحسنِ ثيَابه - ينزلُ إلى القاربِ الذِى أُعِدَّ له. وكانَ القاربُ مُؤثثًا بالأثاثِ الأنِيق.

ولما التقى الرجلانِ تبادلاَ من عباراتِ الودِّ، وكلماتِ الصداقةِ ما ملأَ جوَّ المقابلةِ بمعَانِى السلاَم.

ودعَا السلطانُ «فاسكو دى جاما» لينزلَ إلى البر ويزورَ السلطانَ فى قَصْره زيارةً يَجدُ فيها الراحةَ منْ جهةٍ، ويمنحه بهَا الشرفَ منْ جهةٍ أُخرى، عَلى أنْ يردَّ له السلطانُ الزيارةَ على ظهرِ السفينةِ «سان جابرييل». واعتذرَ «فاسكو دِى جَامَا» عَنْ تلبيةِ هذِه الدعْوة بأنَّ مليكَه لم يأذنْ له بالنزولِ فى الأرضِ، ولو أنَّ ملكَ البرتغالِ عَلم بأن «فاسكو» خالفَ أَمْرَهُ لغضبَ أشدَّ الغضبِ. ومَا أغنى شيخ البحار البرتغالى عنْ إغضابِ مَلكه العظيمِ!

وانبسطَت أساريرُ الرجلينِ، وانفسحَت أمامهمَا شعابُ الحديثِ، وودَّ السلطانُ لو حملَ «فاسكو» معه فى عَوْدته منْ رحلته سفيرًا منَ السلطانِ إلى الملكِ «عمانويل»، أو عَلى الأقلِّ حملَ معه رسالةً إليه!

وأطلقَ «فاسكو دى جاما» سراحَ الأسرى منَ العربِ الذينَ كانُوا قَدْ ألقوا بأنفسِهم فى البحرِ فرارًا منَ الوقوعِ فِى الأسرِ، وسُرَّ سلطانُ ملندة بهذِه الصَّنيعَةِ التى قَدَّرهَا أعْظَمَ تقديرٍ.

وطافَ السلطانُ فِى قَاربه بسفنِ البرتغاليينَ التِى كانت تطلقُ الصواريخَ تحيةً للضيفِ الإفريقى الكريمِ!

وغادرَ السلطانُ هذا المهرجانَ البحرىَّ الرائعَ بعدَ أن تركَ أحدَ أبنائِهِ وأحدَ نُبَلائهِ فى ضيافةِ الأسطولِ البرتغالى، وأخذَ السلطانُ معه إلى البر اثنينِ منَ البرتغاليينَ رغبةً منه فى أنْ يمكنهمَا منْ زيارةِ قَصْرِه.

ووعدَ السلطانُ - إكرامًا لهؤلاءِ الوافِدِيـن - أن يقيمَ على طولِ الشاطئِ مهرجانًا للفرسَانِ الذينَ سيقومونَ أمامَ «فاسكو» ورجَالِهِ بعرضِ ألعابِ الفروسيّة وهو راكبٌ فِى البحرِ، ما دَامَ لا يريدُ النزولَ.

وظهرَ السلطانُ فِى اليومِ التالِى عَلى أرضِ الشاطئ وفى مُوَاجهةِ السفنِ البرتغاليةِ، وقد لبسَ عباءةً ملكيةً منَ الحريرِ الدمشقى الموشى بأهدابٍ منَ الحريرِ الأخضرِ، ووضعَ عَلى رأسِه طاقيةً مُطَرزة بالذهب ومُزَينة بالجواهرِ. وجلسَ السلطانُ على

كُرسى منَ البرونزِ المنجَّدِ وعليه حشيتانِ[١]، وفوقَ رَأْسه مِظَلَّةٌ[٢] مُستديرةٌ منَ الحريرِ القُرمزى يحملهَا قائمٌ منَ الخشبِ. ووقفَ بجانبِ السُّلطانِ شيخٌ يُلازمه مُلازمةَ التابعِ، ويحرسُه حراسةَ الأمينِ، وقد حملَ سيفًا قصيرًا مُغْمَدًا فِي غِمْدٍ[٣] منَ الفضةِ الخالصَةِ.

ولمْ يتم جمالُ هذا المهرجان البسيط إلا بفرقةٍ منَ اللاَّعبينَ والعازفينَ! لقد كانَ هناكَ منْ ينفخونَ فى الأبواقِ، كما كانَ هناكَ اثنانِ ينفخَانِ فى نَفيرَيْنِ كَبيرَيْنِ من العاجِ يبلغُ حجمُ الواحدِ منهما

(١) الحشيَّةُ: كيسٌ مَحْشو بالقطنِ أو الريشِ الصغيرِ عَلى هيئةِ وسادة صَغيرة والجمع حَشَايَا.

(٢) المِظَلَّةُ: مَا يُسْتظَلُّ به والجمع: مَظَالُّ.

(٣) الغِمْدُ: غلافُ السيف، والجمع: غُمُودٌ، وأَغْمَادٌ.

حَجْمَ الرجلِ، وقد زُينا بنقوشٍ جميلةٍ محفورةٍ عَلى سطحهَا. واجتمعَ منْ هذه الأصواتِ كُلِّهَا نغمٌ مُتساوقٌ[١] لذيذٌ !

وكأن هذا المهرجانَ الجميلَ للفروسيةِ لم يكُنْ كافيًا لإكرامِ البرتغاليينَ، فَفِي اليومِ التالِي ركبَ «فاسكو دى جاما» ومعه «نيقولا كويليو» - ربانَ السفينةِ «بريو» - قاربًا وأخذا يحدقَانِ فيه أمامَ المدينةِ عَلى طولِ الساحلِ ذَهَابًا وَجَيْئَةً[٢]، ولم يفتهمَا أنْ يأخذَا معهمَا بضعةً منَ القواربِ الطويلةِ المزودةِ بالسلاحِ.

ولم يكُنْ سلطانُ ملندة جالسًا هَذِه المرةَ على كُرسيه البرونزى، وإنما كانَ محمولاً فى محفةٍ[٣] منْ دَرَج قَصْرِه إلى مقربةٍ منَ القاربِ الذِى كانَ يحدقُ فيه الملاحُ البرتغالى الجرِىء، ولما اقتربَ الرجلانِ - بينَ أصواتِ التهليلِ، ومعارضِ الفرسانِ، ولعبِ الخيولِ - رغبَ السلطانُ مرةً أُخرى أَنْ ينزلَ «فاسكو دى جاما» إلى البر، لأنَّ والدَه المسن المقعد يودُّ لو يحظَى برُؤْيته، وقدمَ السلطانُ نفسَه وأبناءَهُ رهائنَ عَلى ظهرِ السفُن البرتغاليةِ حتى يتم «فاسكو» زيارته إلى البر، ولكنَّ الملاحَ الداهيةَ لم يعدمْ[٤] - على الرغمِ منْ ذلكَ - وسيلةً إلى الاعتِذار!

---

(١) مُتساوقٌ: مُتتَابعٌ.

(٢) جَيْئَةً: أتَى

(٣) يُقَالُ حَفَّ فُلانًا: اعتنَى بِهِ ومَدَحَه.

(٤) لم يعدم: لم يفقد — سيجد.

والحقُّ أنَّ سلطانَ ملندة كانَ على جانبٍ منَ الخطأِ والغفلةِ حينَ رحَّبَ بالبرتغاليين وفتحَ لهم ذراعيْهِ، فإنه لم يكنْ يَدْرى أنه بعدَ بضعةِ عَشَر عامًا من هذا الترحيب سيشلُّ البرتغاليونَ حركةَ التجارةِ فِى ملندة إلى حدٍّ لم يكنْ يخطرُ لهم علَى بالٍ. ولكنْ ماذَا تكونُ هذه السيئةُ أو حتى السيئاتِ التى اقترفهَا «فاسكو دى جاما»، بجانبِ الحسنةِ الكُبرى التِى أسداهَا إلى العالِم كُلِّهِ وإلى البرتغالِ خَاصَّة، بكشْفِ الطريقِ إلى بلادِ الهندِ؟

رهينة من العرب فى ملندة

لم يكن العربُ كاذبينَ حينَ أَخبروا «فاسكو دى جاما» بأنَّ فى مدينةِ «ملندة» أَرْبعَةً منَ السفنِ الكبار يملكهَا جماعةٌ مِنَ الهنودِ. لقد جاءَ هؤلاءِ الهنودُ ليحيُّوا السفنَ البرتغاليةَ، وصعدُوا على ظهرِ السفينةِ «سان رافايل» التِى كانَ يُديرُ دفتهَا «باولو دى جاما» شقيقُ «فاسكو». واستقبلَهم القائدُ «فاسكو» نفسُه علَى ظهرِ السفينةِ التى يقودهَا أَخُوه. وقد توَالت زياراتُ هَؤُلاءِ الهنودِ للسفنِ البرتغاليةِ، ولم تَخلُ زيَارة لهم منْ هديَّةٍ منَ القرنفلِ، وحبِّ الفلفل وغيرهما مما استطاعُوا أن يقدمُوه.

وبدَا الهنودُ للبرتغاليينَ لأولِ مرةٍ، فى ألوانِ بشْرتهم السَّمراء النحَاسية، وفِى مَلاَبسهم القليلةِ التِى يتخففونَ منهَا، وفى لِحَاهم التِى يرسلُونها، وفِى شُعُورهم الطويلةِ التِى يضفرونهَا.

ولم يتناول الهنودُ منَ الطعامِ الذِى قدمَ إليهم شيئًا منَ اللحمِ خشيةَ أن يكونَ منْ لحمِ البقرِ، الذِى عرفَ البرتغاليونَ منهم أنه محرم عَلَيهم بحكمِ شَرِيعتهم.

وأدركَ البرتغاليونَ أنَّ الهنودَ يتكلمونَ لغةً أُخرى غير لغةِ العربِ، تختلفُ عنهَا نطقًا وقواعدَ وأُصُولاً، وإن كانَ بعضُهم اضطرَّ بحكمِ اختلاَطِه بالعربِ إلى التكلمِ بالعربيةِ، فقد كانَ بينَ العربِ والهنودِ فِى ذلكَ الزمانِ علاقاتٌ تجاريةٌ وثيقةٌ، زَادتها صناعةُ البحرِ توكيدًا عَلى توكيدٍ..

وما بدَا[1] اطمئنانٌ عَلى أهلِ ملندة وسلطانها كَما بدَا عَلى وُجُوه هؤلاءِ الهنودِ، والحقُّ أنهم لَمْ يكونُوا منَ النصارى كما فهمَ العربُ، ولكنهم كَانُوا منَ الهندوكيين. ولقد كانَ لقاؤهمِ للبرتغاليينَ جميلاً، وفَرحهم بهم كبيرًا، ولما كانَ «فاسكُو دى جاما» فى قَاربِهِ يستعرضُ فرسانَ ملندة يومَ المهرجانِ، كانَ هؤلاءِ الهنودُ يطلقونَ الصواريخَ منْ سُفُنهم تحيةً لَه ولرجَالِه، وكانُوا يسْتقبلُونه - كُلَّمَا رَأَوه - بالصياحِ، والهتافِ، والتهْلِيلِ!

وحَذَّر هؤلاء التجارُ الهنودُ القائدَ «فاسكو دى جاما» منْ أَهلِ ملندة، ونصحُوه أنْ لاَ يَغترَّ باحتفَالاَتهم، ولا ينخدعَ بمهرَجَاناتهم، لأنَّ هَذِه الحفاوةَ ليستْ صادرةً منْ أعماقِ قُلُوبهم، ولا نتيجةً لحسنِ نِيَّاتهم. ولم تكنْ هذه التحذيراتُ إلا نتيجةَ التنافسِ الشديدِ بينَ تجار العربِ

---

(١) مَا بَدَا: مَا ظَهَرَ.

والتجار الهنودِ، فقد كانَ هؤلاء الهنودُ يخشونَ منَ العربِ مُنافستهم إيَّاهم فِى التجارةِ بينَ السواحلِ الهندية، وسواحلِ الجزيرةِ العربيةِ، وسواحلِ إفريقية الشرقية.

ولبثَ البرتغاليونَ أيامًا ينتظرونَ الأدِلاَّء الذينَ وعدَ بهم سلطانُ ملندة، وَأَخَذَ «فاسكُو» أحدُ رجالِ السلطانِ المقربينَ رهينةً حتى يتمَّ إنجازُ وَعْده، وبعثَ إليه رسالةً يُذكره فيها بعهْدِه، فأرسلَ إليه السلطانُ دليلاً مِنْ غيرِ المسلمينَ، وبذا أطلقَ «فاسكو دى جاما» سراحَ التابعِ الأخيذِ. وأدلَّ الدليلُ الجديدُ إلى البرتغاليينَ بطائفةٍ منَ المعلوماتِ عَنِ الشاطئِ الإفريقى الشرقى وسواحِلِه وجُزره وتجَارته. وحدَّثهم عَنْ جزيرةِ «كلوا» «Kilwa» القريبة منْ مُوزمبيق، وما فيها منَ اللآلئ الَّتِى تُصَاد منْ بحرِهَا. ولم يكن اسم «كلوا» غريبًا عَلى مَسَامع البرتغاليين هذه المرة، فقد سمعُوه قبلَ ذلكَ منْ أفواهِ الأدلاءِ العَرب.

وأُعجبَ البرتغاليونَ بمدينةِ ملندة الراقدَة على خليج مُستطيلٍ عَلى امتدَادِ الشَّاطئ، ووجدُوا بينهَا وبينَ مدينة «الكوشتْ» «Alcochete» البرتغالية وجوهًا مِنَ الشَّبه، حيثُ ترقدُ هذِه الأخِيرة عَلى مصَبِّ نهر «التاجة» شمالى مدينة لشْبُونة بقليلٍ. ولَفتت المدينةُ الإفريقيةُ التجَاريّةُ أنظَارَهم ببيوتهَا المرتفعَةِ العاليةِ الطبقَاتِ، وبألوانهَا البيضاء المطْلية بالكِلْس[1] أو المرشُوشة بالجيرِ، وبنوافذهَا

(١) الكِلْس: الجيرِ. وهو المادَّة المتبقية بعد تسخين الحجر الجيرى تسخينا شديدا وبعد خروج بعض مُكوِّناته.

الكثيرةِ التـى كـانَ يبـدُو النـورُ منـهَا فِـى ظـلامِ الليـلِ فتلـوحُ كأنـهَا قَوَانيس مُعَلقة فى الهواءِ..

وكانَ يحيـطُ بملنـدة مـنْ جهـةِ الأرضِ أَحْـراجُ[1] النخيـلِ، وحقـولُ الذرةِ، وحدَائقُ الخضرِ التى كانت تنمُو بكثرةٍ فى تلكَ البلادِ.

وأقامَ البرتغاليونَ فى مياهِ ملندة تسعةَ أيامٍ منْ منتصفِ إبريل سنة ١٤٩٨ لم ينقطعْ فِى خلالها موكبٌ عَلى الشَّاطئ، ولا مهرجَانٌ ولاَ فُروسـية، ولا عزفٌ بالموسيقَى، ولا غيرهَا منْ مظاهرِ الحفاوَةِ والتكْرِيم.

إلى الشمال من خط الاستواء ثانية

فى اليومِ الرابعِ والعشرينَ منْ شهرِ إبريل سنة ١٤٩٨ كانَ الملاحونَ البرتغاليونَ يرفعونَ المراسِى، وينشـرونَ القلـوعَ، ويمسـكونَ بالحبـالِ، ويروحُونَ ويغْدُونَ فى حركةٍ سريعةٍ عَلى ظهور السـفنِ الثـلاث. ولم يكنْ ذلكَ المشـهدُ إلاَّ إيذانًـا بـالرحيلِ مـنْ ملنـدة إلى حيـثُ يوجِّهُـهُم الدليلُ !

وكانت وجهةُ الدليلِ أنْ يَمْضِىَ بهم إلى ثغرِ «قـاليقوط» «Calicut» على الساحِلِ الغربى لبلادِ الهنـدِ، وهـى بـالطبعِ غـير مدينـة كالكوتـا «Calcutta» الواقعةِ فِى الشرق منْ تلكَ البلادِ، على أحدِ الفـروعِ فـى دِلتا نهر «الكنج».

---

(١) الحِرْجُ: الشَّجرُ الكثيفُ الذى لا يستطيع أَحدٌ أنْ ينْفُذَ منه والجمع أَحْراجٌ.

ولمْ ينقطعْ سؤالُ البرتغاليينَ لهذا الدليلِ بينَ لحظةٍ وأُخرى عنْ مَدَى الطريقِ، وما بقى منه بالقياسِ إلى مَا مَضَى، وطبيعةُ الساحلِ الغربى للهندِ، والمدُن القائمةِ عليه، منَ امتدادِه بين الشمالِ والجنوبِ.

وأخبرهُم الدليلُ أنهم سيُصَادفونَ فى طَرِيقهم إلى الهندِ خليجًا كبيرًا هو «بحر العرب»، وأنَّ ستمائة جزيرة تنتشرُ عَلى جوانبِ هذا الخليجِ الواسعِ الذِى يُؤَدى إلى بحرٍ يُسمى «البحر الأحمر»، وأنَّ هذا البحرَ الأخيرَ هو الطريقُ إلى مكةَ وإلى الكعبةَ، التى يحجُّ إليها المسلمونَ، ويأْتُونَ إليها منْ كلِّ فَجٍّ[1] عميقٍ.

وفى آخر يوم أحد منْ شهر إبريل، أخذ «باولو دى جاما» يقلبُ وجْهه فِى السماءِ، فرأَى فيها نجمًا لامعًا طالَ عَهْدهم به منْ زمنٍ بعيدٍ! ولَمْ يطق «باولو» أنْ يصمتَ عَلى رؤيةِ هذا النجمِ، فأعلنَ، فى فرحةٍ وفى صوتٍ مُرتفعٍ، أنَّ هذا النجمَ هو النجمُ الشمالى الذِى يدلُّ ظُهُوره ثانيةً عَلى أَنَّ الملاحينَ قد اجتازُوا الآن خطَّ الاستواءِ إلى جهةِ الشمالِ منَ الكرةِ الأرضيةِ، بعدَ أنْ ظلُّوا شهورًا فى غَمَرَات الجنوبِ!

---

(١) الفَجُّ: الطريقُ الواسعُ البعيدُ والجمع فِجَاجٌ. وأفِجَّة.

ملامح من أرض الأحلام

ظلَّ «فاسكو دى جاما» ورجَالُه منذُ غَادرُوا ثغرَ ملندة ثلاثةً وعشرينَ يومًا لم يروا فى خلالَها أرضًا، ولم تقعْ عُيونُهم عَلى برٍّ. ولكنهم فى هذِه الجولةِ الأخيرةِ لم يكونُوا يائسينَ ولا خَائفينَ. لقدْ كانُوا على ثقةٍ منْ أنهم عَلى الطريقِ إلى الهندِ، طَالَ بهم السبيلُ أَمْ قَصر، وكانُوا على ثقةٍ أَنَّ العنايةَ الإلهيةَ التِى لاَحظَتهم شهورًا كثيرةً منذُ غَادَرُوا لشبونة، لنْ تتخَلَّى عَنْهم فى أخرياتِ الطريقِ. وفى اليومِ الثامنِ عَشَر منْ شهرِ مايو سنة ١٤٩٨ كانَ الملاحونَ البرتغاليونَ يتطلعونَ فى شوقٍ وتلهفٍ إلى مَا وراءَ الأفقِ، فإذَا هُم يلمحونَ سلسلةً منَ الجبالِ العَالية، وكانتْ هذِه الجبالُ هى جبَال «دلى» «Dely» التى تكوِّن رعانًا[1] ممتدة داخلَ البحرِ. ولم يكُن بينَ السفنِ البرتغاليةِ وبينَ هذِه الجبالِ والرعَانِ أكثر منْ ثمانيةِ فراسِخ، عَلى حينَ كانَ عمقُ البحرِ - حينما أَدْلى الملاحونَ مقاييس الأعماقِ - خمسًا وأربعينَ قامةً بحريةً، وهو عمقٌ عَظيم.

وبعدَ محاولاتٍ واتجاهَاتٍ، قاربَ الملاحونَ الأرضَ، وسَارُوا بسُفنهم على محاذاةِ الساحلِ، ولكنَّ الأمطارَ الثقيلةَ المنْصَبَّةَ، والعواصفَ

---

(١) الرعَان: أُنُوفُ الجبالِ: واحدهَا: رَعْنٌ.

الشديدة، والرعودَ الخاطفةَ التى ظلّت وقتًا طويلاً، لم تُساعد الدليلَ الذى صاحبهم منْ ثغرِ ملندة عَلى أن يتبينَ حقيقةَ الموقعِ الذى كَانُوا فيه.

وفى صباحِ يومٍ منْ أيامِ الأحادِ التى كانتْ تَتَشَابه دائمًا معَ بقيةِ أيامِ الأُسبوع، وجدَ البرتغاليونَ أَنفسَهم عَلى مقربةٍ منْ بعضِ الجبالِ التِى تُسمى «رأس كوتا» «Cotta» أو «رأس كادلور» «Kadalur»، وَلَمَّا تفرسهَا الدليلُ فراسةَ العارفِ الخبيرِ عَلى مقربةٍ منهَا، عرفَ أنها تقعُ إلى الشمالِ منْ مدينةِ «قاليقوط»، وأنها لا تبعدُ عنْ هذا الثغرِ أكثرَ منْ خَمْسة عَشَرَ ميلاً.

هنا بلغَ الفرحُ مبْلغه منْ قلوبِ البرتغاليينَ! إنهم الآن عَلى مَدى النظرِ منَ الشاطئِ الذِى قَطَعوا إليه الأمواجَ واللجج! إنهم الآن يشهدونَ قممَ الأرضِ التِى انتهَت إليها آمالُهُم!

إنهم الآن يواجهونَ الغرضَ الذِى قامُوا منْ أجلهِ منذُ عشرة أشهرٍ تقريبًا، ترميهِم اللُّجَجُ وتقذفُ بهم الغَمَرَاتُ[1] فى البحَار، وهم لا يدْرون أينَ يبلغونَ، وإلى أينَ ينتهونَ؟ ولا يعرفونَ إذَا كانَ النجاحُ مقدرًا لهم، أم الإخفَاقُ مَكْتوبًا عَلَيهم!

والآن صارَ النجاحُ مِنْهم عَلى أطرافِ الأَصَابع، وليسَ بينهم وبينَ أرضِ الأَحْلامِ إلاَّ بضْع خَطَوات، إذَا قِيسَت بما قَطَعوه منْ آلافِ الأميالِ..

---

(١) الغَمْرَةُ: الماءُ الكثيرُ والجمع غُمَرٌ، وَغِمَارٌ، وغَمَرَاتٌ.

وفى ليل ١٨ مايو ألْقَى البرتغاليونَ مَرَاسيهم عَلى بعدِ فرسخيْنِ اثنيْنِ منْ مدينة «قاليقوط». وقد اضْطروا إلى ذلكَ لأنَّ الدليلَ اشتبهَ عليه الأمرُ بينَ ثغرِ «كابوا» «Capua»، وثغرِ «قاليقوط».

ولاَحَت لهم عَلى الشاطئ أيضًا قربَ «قاليقوط» مدينةٌ بحريةٌ أُخرى، تطلُّ منها عَلى الساحِلِ مئذنةٌ عاليةٌ، يراهَا المقبلُ على سَاحلِ الهندِ وهى تضربُ فى الهواءِ، فعرفُوا منْ دَليلهم أنها مدينة «فندرينة» «Pandarani» ذات الأَسْوَاق والبسَاتين.

ولو أنَّ الدليلَ الهندِى كانَ عَلى شىءٍ منَ العلمِ بتاريخِ العربِ والمسلمينَ والجوَّابينَ[1] فى هذِه البحَار، لأَخْبرهم أنَّ الرحالةَ ابنَ بطوطة قَدْ نزلَ هذِه الثغور كلهَا قبلَ قرابة قرنٍ ونصْف قرنٍ منَ الزمانِ، حينما قامَ برحلتهِ الأُولى سنة ١٣٢٥م.

ولو أنَّ الدليلَ الهندِىَّ كانَ عَلى شىءٍ منَ العلمِ بأخبار الرحَّالينَ المسلمينَ، لأَخْبرهم أنَّ ابنَ بَطُّوطة نزلَ بمدينةِ «قاليقوط» وقالَ عنهَا فى رحْلته: «إنها إحدَى البنادر العظامِ ببلادِ الملِيبار «Malabar»، يقصدهَا أهلُ الصينِ، والجاوة، وسيلاَن، والمهل، وأهل اليمن، وفارس، ويجتمعُ بهَا تجارُ الآفاقِ. ومرسَاهَا منْ أعظمِ مَرَاسى الدنيَا».

ولكنْ هَذه المرة لَمْ يقصدْ مدينةَ «قاليقوط» هؤلاء الأُمم والأَجناس الذينَ ذكَرهم الرحالةُ العربىُّ المسلمُ ابنُ بطوطة، ولكنْ قصدَهَا

---

(١) الجوَّابينَ: المتجوِّلينَ – الرُّحَّالَة.

قومٌ مِنْ أهلِ أُوربة جَاءوا إليها بتكليفٍ منْ مَلِيكِهم، ليصلُوا إليهَا عنْ طريقٍ آخرَ غَيرِ الطريقِ القديمِ المطْرُوق، ولينتزعُوا تِجَارتها منْ أيدِى العربِ ومنْ أيدِى المماليكِ المصريينَ، ومنْ أيدِى أَهْلِ جَنوة والبندقيةَ عَلى حَدٍّ سَوَاء!.

ولم يكنْ سَاحلُ الهندِ الغربى بغيرِ عُيونٍ ولاَ أَرْصَاد، ولا مُلاَحظينَ ولاَ مُرَاقبينَ. فلمْ تكد السفنُ البرتغاليةُ تُلقى مراسيهَا حتَّى وصلَ إليهَا أربعةُ قواربَ قَادِمَة منَ البر، وكانَ بهَا جماعةٌ منَ الهنودِ سَأَلوا هؤلاءِ الملاحينَ عنِ البلادِ التى جَاءوا منهَا، أو الدولةِ التى يُمثلونهَا، أو الغايةِ التِى يَقْصِدُونها.

وبالطبعِ لم يقل البرتغاليون إنهم جَاءوا هنَا ليرسُوا قواعدَ الاستعمار الأُوربى عَلى أساسٍ متينٍ!

وبالطبعِ لم يقولُوا إنهم جاءُوا إلى هنَا ليمهدُوا الطريق لتكوينِ دولةٍ برتغاليةٍ عظيمةٍ، تقوضُ سلطانَ العربِ التجارى والسيَاسى فِى هذِه البلادِ.

وبالطبعِ لم يقولُوا إنهم جَاءوا إلى هنا لينتزعُوا تجارةَ الشرقِ، ولآلئَ الشرقِ اللاَّمعة، وجواهرَ الشرقِ النفيسةِ، وتوابلَ الشرقِ الشهيةِ اللذيذةِ، منْ يدِ العربِ، ويحتكروهَا لأَنْفُسِهم..

ولم يزدْ «فاسكو دى جاما» عَلى أَنْ أجابَ هؤلاء الهنود بأنهم جَاءُوا منْ بلادِ البرتغالِ المسيحية، ليبلغُوا «قاليقوط» عنْ طريقٍ حولَ إفريقية بدلاً مِنَ الطريقِ القديمِ.

وفى اليومِ التالي جاءَ الهنودُ فِى قَوَاربهم الأربعة، ولعلَّهم لم يكُونـوا على جانبٍ مِنَ الثقةِ والاطمئنانِ إلى هؤلاءِ الوَافدينَ.

وخرجَ أحدُ رجالِ «فاسكو دى جاما» إلى البر، فقابَلَه اثنانِ مِنْ تجَّار العربِ التونسيينَ مِمَّنْ لهم خِبْرة بالأسفار، وَمَعْرفة بلغةِ جنوة ولغـةِ قشتالة، فكانت تحيتهمَا إلى الدليلِ البرتغَالى النازلِ إلى أرضِ الهنـدِ هَـذِه العبَارة :

- عليكَ لعنةَ اللهِ وغَضَبَ الشيطَانِ! ماذَا جـاءَ بـكَ إلى هَـذِه البـلادِ أيها الرجِيمُ؟!

وأجابَ البرتغالى أنه جَاء يبحثُ عـنِ المسـيحيينَ مـنْ جهـةٍ، وعـنِ التوابلِ الأفَاويهِ[1] من ناحية أخرى!.

فسألاه:

- ولماذَا لم يبعثْكَ إلى هُنَا ملكُ قشـتالة، أو ملـكُ فرانسـة، أو أمـيرُ البندقيةِ العظيمِ؟

فأجابهمَا أنه بُرتغالى، وأنَّ ملكَ البرتغالِ لم يـأذنْ لـه ولا لأصْحَابـه بسفارةٍ فِى هَذِه البلادِ، وإنَّمَا هى رحلةٌ للبحثِ عنْ أطيبِ الأفَاويه!.

وبعدَ حديثٍ قصيرٍ بينَ البرتغالى والتونسيينَ أخذَاه إلى منزلهمَا، وقدمَـا له طعامًا بسيطًا منْ خبزِ القمحِ وعسلِ النحلِ، فلمَّا فـرغَ مـنَ الطعـامِ

(١) الأفَاويه - التابلُ يُعالجُ به الطَّعامُ والجمع أفاوية ومفردها : الفُوه.

استأذنهما في العودةِ إلى السفنِ، فعادَ ومعه واحدٌ منَ العربِ ما كادَ يصعدُ إلى ظهرِ السفينةِ «سان رافايل» حتى صاحَ بهذهِ العباراتِ:

- مخاطرةٌ سعيدةٌ، ومغامرةٌ موفقةٌ أيها الملاّحونَ! ما أكثرَ اليواقيتَ هُنَا! وَمَا أعظمَ الزمرُّدَا! وما أَسْنَى[1] الجواهرَ التي تمتلىءُ بها هَذِه الأرضُ الطيبةُ! إنَّ الله قد ولاّكُم منَ النعمِ ما لا ينهضُ به شُكركُم، حينَ رَمَى بكم إلى هَذِه البلادِ، التي تحملُ مثلَ هذا الثراءِ!

ونطَقَ العربيُّ هذِه العباراتِ في لغةٍ برتغاليةٍ ولهجةٍ قشتاليةٍ! فكانَ دَهْشُ البرتغاليينَ لما سمعُوه منْ أنباءِ أرضِ الأحلامِ، أقل منْ دَهْشتهم لما سمعُوه منْ لُغتهم يتحدثُ بها عَربي فيما وراءَ البحارِ!

وأغلبُ الظَّن أنَّ هذا المتحدثَ لم يكنْ عربيًّا أصيلاً، وإنَّما كانَ منْ هذِه الشعوبِ التي دخَلَتْ في الإسلامِ، كالتركِ والألبانيينَ واليونانيينَ وغيرِهم منْ عناصرِ أوربا الجنوبيةِ، الذينَ نزحُوا إلى هذِه الأرجاءِ البعيدةِ طلبًا للأرباحِ التي كانتْ تُدرها التجَارةُ في هذا المجالِ.

ورأى «فاسكو» ورجَالُه في مدينة «قاليقوط» مَا لَمْ يروْهُ في غيرِهَا منَ الثغورِ التي مَرُّوا بها خلالَ رحْلتهم عَلى شواطئِ القارةِ المظلمةِ غربًا وشرقًا.

رأى الهنودَ في أجسامِهم النحاسيةِ اللَّون، وفي لِحَاهِم الكَبيرةِ، وضفَائِرِهم المرسلةِ، ورأى بَعضهم يحلقونَ رءُوسَهم، أو يقصرونَ

---

(١) سَنِيَ: سَنُا، وسَنَاءُ: ارْتَفَعَ ثَمنُهُ.

شُعُورَهم، ورأى بَعْضهم يتركونَ فى وسطِ رُءُوسهم خصلـةً طويلـةً منَ الشعرِ تميزهم عن غَيرهم من المذاهبِ، ورآهم يـتركونَ شَـوَاربهم مُرْخَاةً على جَانبى أشدَاقهم.

ورأى الرجالَ منهم يثقبونَ آذَانَهم ويتحلُّونَ فيـها بـأقراطٍ وأثقـالٍ منَ الذهبِ.

ورأى أجْسَامهم عاريةً إلى خُصُورهم، ولكنـهم يغطُّـونَ أنْصَافـهم السفلَى بقُمَاشٍ منسوجٍ منَ القطنِ الرفيعِ.

ورأى البرتغاليونَ فى «قاليقوط» طوائفَ منْ أصحابِ المذاهبِ لم يروْهَا فى مكانٍ آخرَ:

رأوا أَهْلَ ساحلِ المليبار المحاربينَ الذينَ يبيحونَ أكلَ اللحم، وتعدُّدِ الأزواجِ إلى غيرِ عددٍ محدودٍ، ورأوا البرهميينَ، ورأوا العربَ أو المسلمينَ وهم ينحدرونَ منْ أُصولٍ عَربية الآباء هِنْدية الأمهاتِ.

ورأى البرتغاليونَ نساءَ هذه البلادِ فى قاماتهنَّ القَصيرة القميئَة، وفى قلائدِ الذهبِ التى يُطوقنَ بهَا أعناقهنَّ، ويملأْنَ بها لَبَّاتهن[1]، حتَّى ليكادُ الذهبُ الكثيرُ يثقلُ هذِه الرقابِ الخفافِ! وكُن يَتزيَّنَّ بكثيرٍ منَ الأَساور والدمَالجِ التى تصلُ متلاحمةً منْ أرساغهنَّ إلى مَرَافقهنَّ. ولم يتركْنَ أصبعًا من أصَابع اليدِ أو الرجلِ إلا حلَّينه بخواتمَ ذواتِ فصوصٍ من الحجَرِ الكَريم!

ولاحظَ الملاحونَ عَلى أهلِ هَذِه البلادِ هدوءَ المزاجِ، وسلامةَ الطبعِ، فلا يغضبونَ، ولا يثورُونَ..

شيخ البحار الهندى

لم يكنْ حاكمُ «قاليقوط» أو ملكُهَا فى ذلكَ الوقتِ منَ العربِ أو المسلمينَ، وإنما كانَ مِنْ طائفةِ الهندوكيين.

وإذَا كانَ ملكُ مصرَ يُلقبُ فى القديمِ «بفرعونَ»، وملكُ الفرْس يلقبُ «بكِسْرى»، وملكُ الرومِ يلقبُ «بقَيْصر»، فإن ملكَ «قاليقوط»

(١) اللَّبَاتُ بفتحِ اللامِ: جمعُ لَبَّةٍ. وهى موضعُ القِلادَةِ منَ الصدر.

كان يلقبُ مِنْ قديمٍ «بالسَّامِرِى» كما نَطَقَ بهَا العربُ، «وبـالزَّامرين» كما كانَ يَلْفَظُهَا البرتغاليون.

وكان «الزامرين» بعيدًا عنْ «قاليقوط» حينما رسَا فيهَا البرتغاليونَ.

وبعثَ إليه «فاسكو دى جاما» رَسُولين مـنْ رجَالـه يحملاَنِ رسـالةً إليه يُخبره فيها بأَنَّ سفيرَ ملكَ البرتغالِ قـد وصـلَ إلَـى هـذَا الثغـر، وأنه يودُّ لو أذِنَ لهما ملكُ «قاليقوط» بالمثُولِ بينَ يديـهِ ليحمـلاَ إليـه رسالَةَ السفيرِ. وأوصلَ الرسولانِ إلى شيخِ البحار الهنـدِى، حيـثُ كـانَ بعيدًا عنِ الثغـرِ الهنـدِى العظيـمِ، فـأهدَى إليـهمَا مـنْ رقيـقِ الثيـابِ مَا طَابت به نَفْسَاهُمَا. وبعثَ معهما كلمـةً رقيقـةً يُبَلغانـها إلى القـائدِ البرتغالى الكبيرِ، تحملُ مـنْ علامَـاتِ الـترحيبِ، وآيـاتِ التمنـى بطيـبِ المقامِ وسلامةِ الوصولِ، مَا عدَّه الوافدونَ مُجَاملـةً كريمـةً مـنْ ملـكٍ شَرقى كريمٍ!

وبعدَ ساعاتٍ جاءَ رسـولٌ مـنْ قبـلِ «الزامريـن» يبلـغُ البرتغـاليينَ بـتركِ المكـانِ، وإلقـاءِ المراسـى قـربَ ميناءِ «فندرينـة» ذاتِ الأسـواقِ والبساتينَ. ولم يعرفْ «فاسكو دى جاما» سببًا لهذِه الأوامـرِ، أو تعليـلاً ظاهرًا لها؛ إلا ما سمعَ منَ الرسـولِ بـأنَّ المكـانَ الثـانِى أكـثرُ صلاحيـةً لرسُوِّ السفنِ منَ المكانِ الذِى هُمْ به الآن، حيثُ تكـثرُ الصخـورُ فِـى القـاعِ، وهـى صخـورٌ لا يؤمـنُ معـهَا حـادثٌ قـد يُـودِى بالسـفنِ وبالملاحينَ! وزادَ الرسولُ الهندى عَلى ذلكَ بأن العادةَ جرتْ مـنْ قديـمٍ

بأنَّ السفنَ القادمةَ تَرْسُو عَلى هذا المكانِ الذِى صَدرت الأوامرُ بالذهابِ إليه، طلبًا للسَّلامةِ، وإيثارًا للأمانِ!

ولم يكدْ «فاسكو دى جاما» يَتَلَقَّى هذِه الرسالةَ من «الزامرين» حتى أمرَ رجَالَهُ بأنْ يَرْفعُوا المراسِى وينْشُروا القلوعَ التماسًا لمرسَى أَمين!

وجَالت السفنُ جولاتٍ فى مياه «قاليقوط» حتى بلغَت مَرْسى تطمئنُّ إليه نفسُ القائدِ البرتغالى، وبينما هُم يُلقونَ المراسِى فى الموضعِ الجديدِ إذَا برسالةٍ مَلَكيةٍ منَ «الزامرين» تُنْبِئُهم بعَوْدته إلى مدينةِ قاليقوطٍ، بعدَ غيابهِ - حينًا - خَارجَهَا.

وفى الوقتِ نفسِه أرسل «الزامرين» نائبًا منْ قبلهِ معَ بعضِ الرجالِ الممتازينَ، ليصْحَبوا «فاسكو دى جاما» إلى حيثُ كانَ ملكُ «قاليقوط» يَنْتَظِره. وكانَ هذا الوالِى لا يخرجُ إلاَّ محروسًا بمائتينِ منَ الرجالِ الأشداءِ المدجَّجِينَ[1] بالسيوفِ، والمزوَّدينَ بالدروعِ والتروسِ. وجاءت رسالةُ «الزامرين» فى ساعةٍ مُتأخرةٍ منَ الليلِ لم يستطعْ معها «فاسكو دى جاما» أنْ يُلَبى دعوةَ «شيخ البحار».

على موائد الهنود

وطَلَعَ يوم ٢٨ مايو سنة ١٤٩٨ بصباحٍ جَديدٍ، واستعدَّ «فاسكو دى جاما» ليقابلَ «الزامرين» وليحَدثه وليستمعَ إلى حَديثِهِ لو كانَ عِنده من

(١) المُدجَّج: مَنْ عَليه سِلاَحُ تَامٌّ.

حَديث! واصطحبَ «فاسكُو» معه ثلاثةَ عَشَرَ رجلاً مـنْ رجَالـه كـانَ فيهم مُدوِّنُ هَذِه الرحلةِ الطريفَةِ الشائقةِ، الذِى لـولاهُ لضـاعَ كثيرٌ منْ أخبارهَا وتفاصيلهَا.

وكانَ مِنَ الثلاثةِ عَشَـرَ رجـلاً الذيـنَ شـهدُوا هـذا اللقـاءَ التَّـاريخِيَّ الخطـيرَ: «دِيجـو ديـاز»، و «جونسـالو»، و «بـيريس»، و «الفـارو دى براجـا»، و «جون دى سيتوبال»، و «جون دى بـولا» وغـيرهم لم يُـدَون الكـاتبُ أَسْماءَهُم. أما «باولو دى جاما» - شقيق «فاسكو»، «ونيقولا كويليو» فقد بقيَا معَ بقيةِ البحارةِ والملاحينَ فى حراسةِ السفنِ الراسيَة.

ولقـد أصـرَّ «بـاولو»، و «كويليـو» أن يشـهدَا هـذا اللقـاءَ مـعَ الشاهدينَ، ولكنَّ «فاسكو» التفتَ إلى شقيقهِ قَائِلاً:

- ابقِ يا «باولو» مـع بقيـةِ الرجـالِ ومعـكَ «نيقـولا كويليـو» فـى انتظار عودتنَـا! فـإذَا مسـنَا سـوءٌ فعليكمَـا بـالعودةِ عَلـى عجـلٍ إلى مَليكنا «عمانويل»، لتبلغَاه نبأَ النجاحِ العظيمِ الذِى حصلنَا عَليه.

فأجابَ باولو:

- ولكنكَ يا أخِى تُخاطرُ بنفسكَ حينَ تُلقـى بـها بـينَ يَـدَىْ رجـلٍ لاَ تعرِفه ولا تطمئِنُّ إليـه، ومَـا قيمـةُ عودتنـا إلى الوطـنِ بدونِـكَ إذَا مَا أصابكَ مكروهٌ؟

فأجابَ الملاحُ البرتغالى العظيمُ:

- يا أخِى! ليـسَ النجـاحُ كَسْـبًا لفـردٍ، ولكنـه ربـحٌ لأمـةٍ. فنجـاحُ مُهمتنَا - حتى عَلى افتراضِ هَلاَكى - هو نجاحٌ للشعبِ البرتغالى كُلِّه.

وارتدَى البرتغاليونَ لهذِه المناسبةِ أجملَ ثِيابهم، وأبْهَى حُللهم، ونصبُوا المدافعَ عَلى قَوَاربهم، وحملُوا مَعَهم الأبواقَ والطبولَ والأعْلام، فلمَّا نزلُوا إلى البرِّ كانَ فِى اسْتقبالهم مندوبُ «الزامرين» مُحَاطًا بشرذمةٍ منَ الرجالِ المسلحينَ وغيرِ المسَلَّحينَ.

وكانَ اللقاءُ وُدِّيًا - كَما يَصِفه مُدونُ الرحلةِ ومُؤَرخها - كأنَّ الهنودَ كانُوا يُعبرون عنْ سُرورهم برؤيةِ البرتغاليين، ولوْ أنهم فى سُيُوفهم المسْلُولةِ ورمَاحِهِم المشرعةِ التى كانتْ بأيْديهم كانُوا يُنْذرونَ هؤلاءِ الوافدِينَ.

وأرادَ أهلُ البلادِ أنْ يُضْفُوا عَلى «فاسكو دى جاما» ورجَالِهِ منْ آياتِ التكريمِ وعَلاَماتِ الترحيبِ مَا يليقُ بالضيوفِ البَارزينَ، وأعدُّوا لذلكَ منَ الخططِ مَا يعُدونه عادةً فى استقبالِ العظمَاءِ، وتَحيةِ الكُبَرَاء[1].

وقد جَرى العرفُ فِى تلكَ البلادِ أنْ يقدمَ التجارُ إلى الملكِ ثمنًا لما يُقَام لهم من مظاهرِ الاستقبالِ، حتى لا يَمرُّوا بأرضِ «قاليقوط» فى صمتٍ ولا يدخلوهَا فِى سُكونٍ!.

وحُمِلَ فاسكو دى جاما فِى ثِيَابه الزاهيةِ، وقُبعته العَاليةِ، وَعَبَاءته الملَونة المزرْكَشةِ، فِى مَحَفَّةٍ[2] أنيقةٍ كانَ يتناوبُ حملهَا ستةٌ مِنَ الرجالِ.

---

(١) كبر الرجُلُ أو الحيوانُ كبَرًا: طَعَن فى السنِّ فهو كبيرٌ والجمعُ: كبارٌ. وكُبراء.

(٢) يُقالُ حَفَّ فُلانًا: اعْتَنَى بهِ وَمَدحه.

وأخذ الموكبُ الفخمُ طَرِيقه إلى «قاليقوط»، ومنهَا إلى مدينةٍ أُخرى لا تبعدُ كثيرًا عنهَا تُسمى «كابوا».

وبلغَ الموكبُ نِهَايته عندَ بيتِ رجلٍ منْ وُجَهَاء[1] المدينةِ ونُبَلَائها منَ المقربينَ إلى «الزامرين»، ومنْ أشدهم إخْلاصًا له واتصَالاً به.

وكانَ لابدَّ للضيافةِ أنْ تتمَّ مَرَاسيمهَا عَلى مَا جَرى به العرفُ فـى إكرامِ الضيوفِ النازلينَ.

وحفلَـتِ المـائدةُ بصِحَـافٍ مـنَ الأرز الشَّـهى، والزبـدِ الطَّـازج، والسمكِ المسلوقِ الذِى كانَ مـن نـوعٍ ممتاز لم يَألفـه هـؤلاءِ الملاحـونَ الذِينَ كانُوا خُبراء - منْ طُولِ أسْفَارهم - بما يخرجُه البحرُ مـنْ لحـمٍ طَرِى..

ولكنَّ «فاسكو دى جاما» كـانَ دائمًا عَلـى جانبِ الحـذر فِـى بـلادٍ لا يعرفُ مَكْنون صدُور أهلهَا نَحْوه، فلم يتنـاولْ مـنَ الطعـامِ شـيئًا، عَلى حين أكلَ رجالُه واستطَابُوا ذلكَ الطعامَ البسيطَ اللذيذَ!.

ولما فرغُوا منَ الطعامِ رَأَوْا عَلى مقربةٍ منَ الثغرِ نُـهَيْرًا[2] صغـيرًا يجرِى بينَ البحرِ والأرضِ قريبًا مـنَ السَّـاحل، فـنزلُوا فيـه بـالقواربِ ليستطلعُوا الأرضَ حَواليه، وسارُوا فـى بحـراهُ إلى أمـدٍ غـيرِ قَصـيرٍ. ولم يكنْ هذا النهرُ غيرُ نهرِ «إلاتور» «Elatur».

---

(١) وَجُهَ فلانٌ: يَوْجُه وجَاهَةً: صار ذا قَدْر ورتبةٍ. فهو وَجِيه. والجمع وُجَهاءُ.

(٢) نهيرا: نَهْرٌ صَغيرٌ.

إلى قصر الزَّامرين

كان القاربان اللّذانِ ركبهمَا البرتغاليونَ الثلاثة عَشَرَ فى نهرِ «إلاتور» قَدْ شُدَّ بعضُهمَا إلى بعضٍ بألواحٍ منَ الخشبِ، فصارَ الركابُ كأنهم فى مركبٍ واحدٍ لا ينفصلُ أحدُهمَا عنْ صَاحِبِه.

ولما زارَ الرحالةُ الإنجليزى المشهورُ «برتون» «Burton» هذه البلاد فى القرن التاسع عشر، ونزلَ هذا النهرَ بعينهِ، وجدَ القواربَ فيه تُشد مَرْبوطًا بعضهَا إلى بعضٍ، كل اثنينِ فى رباطٍ، كما كَان الشأنُ فى وقتِ نزولِ البرتغاليينَ..

ورأى «فاسكو دى جاما» ورجَالُه النهرَ وقد راحَت فيه القواربُ، وغدَت فيه المراكبُ، وازدحم بالراكبينَ الذينَ مَلَئُوا سطحَه، حتى لم يبدُ الماءُ منْ خلالِ القواربِ المتلاصِقة.

أَمَّا شاطئَا النهرِ فقد ازدحَا بالرجالِ والنساءِ والأطفالِ الذينَ احتشدُوا عليهمَا، ليشهدُوا هؤلاءِ الغرباء الذينَ حَمَلتهم إلى مياه الهندِ سفنٌ ضخَامٌ مُسلحةٌ، لم يألفوهَا فيما يفدُ عَلى ثغور الهندِ منْ سفنٍ.

ولاحظَ البرتغاليونَ أَنَّ هذا النهرَ كانَ يستخدمُ كحوضٍ للسفنِ التِى ترسُو عَلى ضَفَّتيه فوقَ الأرضِ الجافةِ، لإصلاحِ ما يحتاجُ منهَا إلى إصْلاحٍ.

ولما فرغَ البرتغاليونَ منْ جولةِ النهرِ خرجُوا منه، وأُنزِلَ «فاسكو دى جاما» إلى المحفَّةِ آخِذًا طريقَ العودةِ كما جَاء.

وهنَا ازدحمَ الطريقُ بآلافِ المشاهدينَ، الذينَ جاءُوا منْ كُلِّ صوبٍ ليروْا ناسًا منَ الأمةِ التى نَادتها الأقدارُ، لتستعمرَ هذِه الأرضَ بعدَ قليلٍ! وكانت الأمهات تَحْملْنَ أطفالهن أو تَصْحَبْنَ أبناءهنَّ فى أذرعتهنَّ الممتدَّة، حَتى لا يفوتهم ذلكَ المهرجانُ الرائعُ.

وعاد الموكبُ إلى المدينةِ حيثُ أُدْخِلَ الضيوفُ بيتًا ضخمًا للعبادةِ مَبنيًّا منَ الحجرِ المنحوتِ الصَّقيلِ، ومُغَطى بالقِرْميدِ[1]، وكانتْ جدرانُ المعبدِ مُزَينة بِرسُومٍ افتنَّ الصانعونَ فى رسمِهَا، ورشَّ الهنودُ الماءَ المقدسَ عَلى الضيوفِ طبقًا لتقاليدِهم.

(١) القِرْميدُ: كُلُّ مَا طُلِيَ بهِ للزينة.. كالزَّعْفَرانِ والجِصِّ. والجمع قراميدُ.

وهنا اتجهَ «فاسكو دى جاما» إلى اللهِ هو ورجالُه، فصلُّوا شكرًا للهِ فى هذا المعبدِ الهِنْدى، كما صَلَّى منذُ عشرةِ أشهرٍ ونصف فى معبدٍ صغيرٍ قربَ مدينةِ لشبونة قبلَ مُغادرتهم أرضَ البرتغالِ.

صلاةٌ هناكَ فى مياهِ البرتغالِ القريبةِ، وصلاةٌ هنا فى مياهِ «قاليقوط» وفى أرضِ الهندِ العجيبةِ، وبدايةٌ مؤمنةٌ فى أولِ الطريقِ، ونهايةٌ مؤمنةٌ فى آخرِ الطريقِ، لأنَّ الإيمانَ دائمًا هو الذِى يعينُ علَى صِعَابِ السبيلِ..

واحتشدَ الناسُ علَى طرقاتِ المدينةِ، حَتَّى لم يعدْ هناك مكانٌ لِقَدَمٍ، ولا مجازَ لمزدَحِمٍ. واستحالَ المرورُ حتى سُدَّت منافذُ السبلِ، وتعطَّلَتْ حركةُ العبور، فاضطرُّوا تخفيفًا للزحامِ أنْ ينزلُوا «فاسكو» ورجَاله فى بيتٍ منْ بيوتِ المدينةِ، إلى أن تستردَّ المدينةُ بعضَ الهدُوءِ.

وأرسلَ «الزامرين» شقيقًا للوالى - وكانَ أحدُ أشرافِ هَذه البلادِ - ليكونَ فى صُحبةِ «فاسكو دى جاما» فى طريقه إلى قصرِ «الزامرين». وكانَ فى الموكبِ رجالٌ يدقُّونَ الطبولَ، وينفُخونَ فى الأبواقِ، ويُزَمِّرُونَ فى مُوسيقى القِرب المزرْكَشة بالخيوطِ الزاهيةِ والألوانِ الجذَّابةِ، ويرسلونَ شعلاً تنبعثُ من بنادقَ مَحْشوة بالكَبْريت.

وكانَ الموكبُ يَبْدُو فى جلالٍ وأُبهةٍ كما يصنعُ الأسبانيونَ فِى الاحتفالِ بملُوكهم.

ولم تكنْ شوارعُ المدينةِ وطُرقاتها وحدها تموجُ بالمشاهدينَ والمستقْبِلينَ، فقد كانتْ سطوحُ البيوتِ ونوافذها تموجُ منهم بالعددِ العديدِ.

وكلمَا تقدمَ الموكبُ خطوةً ازدادت الطرقاتُ زحامًا، واشتدَّ المهرجانُ أُبهةً وفخامةً. ولما دنَا الموكبُ منْ قصرِ الزامرينَ، خفّ جماعةٌ منْ بطانةِ الملكِ وكبار الرجالِ وأهلِ الجاهِ لاستقبالِ الزائرِ الكبيرِ..

وكانَ الوقتُ أصيلاً، وَبَهَتَ لونُ الشمسِ استعدادًا للرحيلِ. فلمَّا بلغُوا القصرَ مَرُّوا ببوابةٍ كبيرةٍ عاليةٍ تنتهِى إلى فناءٍ رحيبٍ. ولم تكن هَذه البوابةُ إلا مُقدمة لأربعةِ أبوابٍ ضخَام، كلٌّ بابٍ منها يُؤَدى إلى مَا بَعْده.

وَلَقَى البرتغاليونَ مشقةً كَبيرةً فى اجتياز هَذِه الأبوابِ، فقد كَانت الممراتُ ضَائِقةً بالعددِ العديدِ منَ المشاهدينَ والمشاركينَ فِى الحفلِ، واضطرَّ الضيوفُ - لكى يشقُّوا لهم طَرِيقًا - أن يستعملُوا اللكَمَاتِ! ولم يجدُوا حرجًا فى هذِه الوسيلةِ التِى أَسْعفتهم بالخروجِ منْ مأزقٍ شديدِ الضيقِ!

ولما بلَغُوا قريبًا منَ المكانِ الذِى كانَ يجلسُ فيه «الزامرين»، رَأوا شيخًا كبيرَ السنِّ ضئيلَ الجسمِ مُقبلاً عَلَيهم، ولم يكنْ هذا الشيخُ غيرَ رئيسٍ دينى كبيرٍ.

وتقدمَ الرئيسُ الدِّينى ليستقبلَ «فاسكُو» عندَ مرورهِ منْ آخرِ الأبوابِ، وليقبلَه ويباركَ مَقْدَمَهُ إلى القصرِ الكبيرِ.

وقد جُرح بضعةٌ منَ القومِ عندَ اجتيازهم الأبوابَ وبلُوغِهم البابَ الأخير، ولحسنِ الحظِّ لم يُصَبْ واحدٌ منَ البرتغاليينَ بجرحٍ في هذا الزحامِ الشَّديدِ.

وكأنما كانت جراحُ المجروحينَ تحملُ مَعْنى أنَّ الوصولَ إلى صاحبِ هذا القصرِ، وسلطانِ هذه الأرضِ، دُونه أهوالٌ وأهوالٌ!

كان «الزامرين» حينما انتهى إليه الضيوفُ البرتغاليونَ مُحَاطًا ببضعةٍ منْ أتباعِه المخلصينَ، وكانَ مُتكئًا عَلى أريكةٍ مُنَجَّدَةٍ بالمخملِ[1] الأخضرِ اللطيفِ، وكانت أغطيةُ الأريكةِ منْ نسيجِ القطنِ الرفيعِ الناصعِ البياضِ الذي يبدُو كأنه نسيجُ الكتانِ الأبيضِ الرقيقِ. وكانت الوسائدُ مُنجدة بالمخملِ المغطَّى بأكْسيةٍ منَ القطنِ.

ورأى البرتغاليونَ شيخَ البحارِ الزامرينَ يحملُ في يدِه اليسرى مبصقةً كبيرةً من خالصِ الذهبِ. وبينَ لحظةٍ وأُخرى كانَ الملكُ الهِندي يتفلُ في المبصقةِ ويرمي فيها بتفالةِ نباتٍ كانَ يمضغُه ويستحْلبه. ولم يكنْ ذلكَ النباتُ غير ورقِ «التانبول» الطيبِ الرائحةِ الذي وصفَهُ الرحالةُ المسلمُ ابنُ بطوطة قبلَ ذلكَ بقرنٍ ونصفِ قرنٍ منَ الزمانِ بأنه «يذهبُ بروائحِ الفمِ، ويهضمُ الطَّعامَ، ويقطعُ ضررَ شربِ الماءِ الكَثيرِ ويفرحُ آكِلَهُ!»

---

(١) المخمل: القطيفةُ.

وكانَ على يمينِ الزامرينَ طبقٌ كبيرٌ منْ خالصِ الذهبِ، على هيئةِ طَسْتٌ كبيرٌ، وقد بلغَ منْ ضخامةِ قُطره أنه يتسعُ لتطويقِ الذراعينِ. وكانَ هذا الطبقُ مملوءًا بأوراقِ نباتِ التانبول التى كانَ الملكُ يتناولُ منهَا قدرًا منْ حينٍ إلى حينٍ.

وكانَ بريقُ الذهبِ فى الأطباقِ والطَّاسَاتِ، وبريقُ الستائرِ والطنافسِ[1] المطرزَةِ بالذهبِ، ولمعانِ الأباريقِ والقواريرِ المصنوعةِ مِنْ صَافى اللجينِ، ينعكسُ كلُّه أمامَ أعينِ الرائينَ، فيوحِى إليهم بأنهم حَقِيقةٌ فى أرضِ الذهبِ التِى كانُوا يحلُمونَ بهَا منْ زمنٍ طَويلٍ!

(١) الطَّنافِس: جمعُ الطِّنْفِسَةُ وهى البساطُ يُلْقَى عَلى الأرضِ أو على المقاعدِ.

ودخلَ «فاسكو دى جاما» فحيَّا «الزامرين» عَلى طريقةِ أهلِ الهندِ، قابضًا بيديهِ رافعًا لهما نحوَ السماءِ، وما أسرعَ ما فَصَلهما ثُمَّ ثنَّى قَبْضَتى يديه.

وأشارَ ملكُ «قاليقوط» وشيخُ البحار إلى ضيفِهِ العظيمِ بيدِه اليمنى ليتقدمَ منه قليلاً، ولكنَّ البرتغالى الدَّاهية اللَّبق لم يفعلْ، لأنه كانَ يعلمُ منْ مَرَاسم الملكِ فى «قاليقوط» أنَّ أحدًا لا يجرؤُ عَلى الدُّنو مِنَ الملكِ غيرَ التابعِ الخاصِّ الذِى يقدمُ له أوراقَ التانبول! وأنَّ كلَّ منْ يحظَى بلقاءِ الملكِ، وينالُ شرفَ المثولِ بينَ يديهِ لابدَّ أن يقفَ على خطواتٍ بعيدةٍ واضعًا يدَه فوقَ فَمِهِ!

ونظرَ الملكُ إلى بقيةِ الضيوفِ نَظْرَةً فهمُوا منهَا أنها أمرٌ لهم بالجلوسِ، فجلسُوا على مَصْطبةٍ منَ الحجرِ حيثُ يكونونَ بمرْأَى قريبٍ منْ جَلالتهِ! وأمرَ الملكُ بأنْ تقدمَ أباريقُ الماءِ للضيوفِ لكى يغسلُوا أيديهم، وجاءتْ ألوانٌ منْ فاكهةِ الهندِ كانَ منهَا ثمارٌ تُشبه الشَّمام، كما كانَ منها ثمارُ الموز التِى استطابهَا البرتغاليونَ إلى حدٍّ كبيرٍ.

وكانَ حفنةٌ منَ الخدمِ يقدمونَ هذِه الفواكهَ إلى الضيوفِ، بلْ كانُوا يقومونَ بإعدادهَا للأكلِ حتى لا يحتاج البرتغاليونَ إلى تقشيرهَا!.

وما كانَ أكثر سرور «الزامرين» وهو يرمقُ الضيوفَ بنظَرَاته الباسمةِ، وهم مقبلونَ على أكْلِ الفاكهةِ بلذةٍ كبيرةٍ، بينمَا كان يتحدثُ إلى تابعهِ الخاص الذِى وقفَ قريبًا منه يقدمُ له أوراقَ التانبول!

وألقى «الزامرين» نظرةً على «فاسكو دى جاما» الذِى كانَ فى مُوَاجهته، ثم دعاهُ إلى أن يتكلَّمَ أمامَ الحاشيةِ ورجَال البلاطِ الذينَ يمثلونَ أَعْلى طبقاتِ البلادِ ويعرفونَ مَصَالحها، وأفهمَهُ أنه يستطيعُ أنْ يُصَارحهم بكلِّ شىءٍ، وهم بعدَ ذلكَ سيناقِشُونه معَ الملكِ مُنَاقشةَ الحرِيصينَ.

وأجابَ «فاسكو دى جاما» بأنه سفيرُ ملكِ البرتغالِ، وأنه يحملُ مِنْ لَدُنه رسالةً كُلِّفَ أنْ يقدمهَا شخصيًّا إلى «الزامرين». وأبدَى «الزامرين» سُرُوره بأن يتلَقَّى فى حَضْرته سفير ملكِ البرتغالِ وأن يتناولَ رسَالته من يدِ سَفِيره، وطلبَ فى الحالِ أن يُفْسحَ له الطريقُ إلى غرفةٍ خاصَّةٍ.

ودخلَ «فاسكو»، ونهضَ «الزامرين» ليصْحَبه إلى الغرفةِ، بينما بقى البرتغاليونَ ورجالُ البلاطِ كُلُّهم فى مكَانِهم لا يبرحُونَ.

وحملَ أحدُ الأتباعِ وسادةً منَ الوسائدِ، ولم يكد «الزامرين» يدخلُ الغرفةَ الخاصَّةَ حتى ألقى نفسَه عَلى أحدِ الأرائكِ، وكانت الطنافسُ هنَا وهناكَ مُوَشَّاةً بخالصِ الذهبِ، الذِى يخطفُ بريقُهُ الأبصَارَ.

وأذنَ «الزامرين» «لفاسكو دى جاما» أن ينقلَ رسَالته عَلى أتم وجوهِهَا، فقالَ إنَّ مليكَه «عمانويل» يملكُ منَ الثراءِ ما لاَ يحيطُ به وصفٌ، ومَا لم يتحْ لغيرهِ منَ الملوكِ المجاورينَ، وأن آباءَ هذا الملكِ العظيم - منذُ ستينَ عامًا - قد أُولعوا بكشْفِ طريقٍ إلى الهندِ غيرِ

طريقهَا المألُوفِ، لأنهم يودُّونَ منْ صميمِ القلبِ أنْ يُؤَكـدوا الروابـطَ بينهُم وبينَ أهلِ الهندِ المسيحيينَ..

وأكدَ «فاسكو» للزامرينَ أنَّ هذِه المعانِى الرُّوحية هىَ التِى حَمَلتهم علـى كشـفِ طريـقِ الهنـدِ، فمـا جاءوهَـا يطلُبـونَ ذهبًـا، ولا فضـةً ولا غيرهَا مِنْ عروضِ الدنيَا، التِى عندَهم منهَا الكثيرُ!

وقـصَّ المـلاحُ البرتغـالى الداهيـةُ عَلـى مَسَـامع «الزامريـن» أنَّ ملاحينَ قَبله قَدْ سبقُوه إلى هذِه الغايـةِ الجليلـةِ منـذُ عـامٍ أو اثنـينِ، ولكنَّ المؤنَ نفدَتْ منهم حَتَّى كادُوا يهلكونَ، فاضطرُّوا إلى العودةِ إلى البرتغالِ قبلَ أن يبلُغوا الهدفَ الذِى كانَ حلمُ البرتغـاليينَ منـذُ عقـودٍ منَ السنينَ وقَصَّ «فاسكو» عليه أيضًا حكايـةَ السـفنِ الأربـعِ التِـى بناهَا الملكُ «عمانويل» ملكُ البرتغالِ لهذِه الرحلةِ الكشفيةِ التِى عَيَّنَهُ قائدًا لها، وأمرهُ أن لا يرجعَ إلى بلادِه مِنْ غيرِ أنْ يرى ملـكَ الهنـدِ، وإلاَّ كانَ جزاؤُهُ أن يفصلَ رَأْسَه عَنْ رَقَبته! وأنه - إذَا وُفق فِى لقاءِ ملكِ الهندِ - فعليْهِ أنْ يؤكدَ له ولاءَ أَخِيه وصَدِيقه ملكِ البرتغال!.

وردَّ الملكُ الذِى كانَ لائـذًا بـالصمتِ طُـولَ الوقـتِ، مُرحبًـا بسـفيرِ صَديقه وأخِيه «عمانويل»، وَاعِدًا أنْ يرسلَ مع «فاسـكو دى جامـا» سفيرًا منْ عِنده إليه، تحقيقًا لرغبةِ الملاَّح العظيمِ.

كانَ بدءُ اللقـاءِ عنـدَ غـروبِ الشـمسِ، ولكـنَّ مراسـمَ الاسـتقبالِ، وتشعُّب الحديثِ بينَ الملكِ وضيفِه قـد امتـدَّ إلى سـاعةٍ مُتـأخرةٍ مـنَ

اللَّيل، فَخَيم «الزامريـن» ضيفَـه بـينَ المبيـتِ عنـدَ العـربِ أو الهنـودِ. ولكنَّ «فاسكو» آثرَ أن ينامَ وحيدًا فِي شُرفة رحيبةٍ ممتدة، أُضيئتْ فيها شمعةٌ كَبيرةٌ!

وخرجَ الضيوفُ البرتغاليونَ مع قَائِدِهم للبحثِ عنْ مكانٍ ينـامونَ فيه، وَحَولهم جموعٌ منَ المستقبلينَ يُخْطِئهَا العددُ.

وفجأةً انصـبَّ المطـرُ، وجَـرى فـى مسـالكِ المدينـةِ كأنـه الأنـهارُ، وحُمِل «فاسكو» فى محفـةٍ، والليـل لا يـزال يزحـفُ، والمطـرُ لا يـزال يتسـاقطُ، حتـى أنهكـه التعـبُ، وأضنَـاه السـهرُ، فشـكَا إلى أحـدِ عُمَّال «الزامرين» وكانَ عربيًّا موكُولاً به العناية بـالضيفِ فـى خـلالِ نومهِ.

وأخذَه العربى إلى منزلِهِ الخاص، حيثُ دخلُوا إلى فناءٍ دَاخِلـى، بـه شُرْفَةٌ مبنيةٌ منَ القِرْميد. وما أسرعَ مـا فُرِشـت البسـطُ، وبُسـطت السجاجيدُ عَلى الأرض. وكانَ هناكَ شمعدانان كبيرانِ عَلى كلٍّ منـهما مصباحٌ مَعْدنى، تتدلَّى منْ فروعهِ الأربعةِ مسـارجٌ تضـاءُ بـالزيتِ أو الدهنِ. وجىءَ إلى «فاسكو دى جاما» بحصانٍ يَرْكبـه إلى مكـانِ نَوْمـه، ولم يَكنْ عليه سرجٌ، فأبى المَلاحُ أَنْ يمتطيَـه، وَطالمـا امتطَـى السـفنَ فى أشدِّ الأعَاصير! وقضَى البرتغاليون لَيْلَتهم كمـا شَـاءَتِ الظـروفُ، وفِـى اليـوم التـالى أمـرَ «فاسـكو» بمجموعـةٍ مـنَ الهدايَـا لترسـلَ إلى «الزامرين». وكانَ فيـهَا ثيـابٌ برتغاليـةٌ مُزَرْكَشـة، وأغطيـةٌ للـرأسِ

قُرمزية اللّون، وقبعاتٌ، وسِبَحٌ مـنَ المرجـانِ، وستةُ أطباقٍ لغسـلِ الأيدِي، وصندوقٌ منَ السكرِ، وكمياتٌ من الزيتِ والعسلِ!.

ولما كَانَ منْ تقاليدِ القومِ أنْ لا يُهْدى إلى الملـكِ شـيءٌ مـنْ غـيرِ أَنْ يُعْلَم به الأميرُ العربى والوَالى، فقد أخبرهمَا «فاسكو» بتفاصيلِ هذِه الهديةِ حتى يكونَا عَلى علمٍ بهَا.

وعُرِضت الهدايَا عَلى الأميرِ العربى والوالى ليريَاهَا قبلَ أنْ تقدَّمَ إلى «الزامرين»، ولم تكدْ تقعُ عُيُونهما عَليها حتى ضحِكَا منها، وسَـخِرَا مِنَ اختيارهَا، لأنها لا تسمُو إلى قدرِ ملكٍ كالزامرينَ!

وقالَ العربـى إنَّ أفقـرَ تـاجرٍ مكـىّ حـينَ يدخـلُ أرضَ الزامريـنَ يقدمُ إليه منَ الهدايَا ما يفوقُ هديةَ البرتغـاليينَ قـدرًا، وأنـه إذا كـانَ لابدّ مِنْ هديةٍ فليسَ هناكَ إلا خَالص الذهبِ! لأنَّ ملـكَ «قـاليقوط» لا يقبلُ مَاعَدَاه!

وبَدَا الأسفُ عَلى وجهِ «فاسـكو» الـذِى اعتـذرَ بأنـه لا يحمـلُ معـه نِضَارًا[1]، وأنه ليسَ تـاجرًا ممـنْ يجوبـونَ البحـارَ للتجَـارة، وأنـه ليـسَ إلا سَفِيرًا وممثلاً لملكٍ أُوربى عظيمٍ!

واعتذرَ الملاحُ الداهيةُ أكثرَ بأَنَّ مَا قَدَّمه ليسَ هَدِية ملكٍ إلى ملكٍ! وإنما هُوَ هدية خَاصَّة، منْ خَالصِ مَاله هو، يتشرفُ بتقديمهَا إلى ملكٍ كبيرٍ! ولو أنَّ الملكَ «عمانويل» أرسَـله ثانيـةً بعـدَ عودتِـهِ إلى لشـبونة

---

(١) النِّضَارُ: الذهَبُ الخالِصُ.

فإنه لا شكَّ سيحمِّلهُ منَ الهدايَا الثمينةِ، والتحفِ الغاليةِ، ما يليقُ بقدرهِ، ويسْمُو إلى مَقَامه!

وجاءَ جماعةٌ من تُجَّار العربِ يشهدونَ هذِه الهديةَ، فاستصغروهَا علَى «الزامرين» سيد البحَار، واقترحُوا أن لا ترجعَ ثانيةً إلى سفنِ البرتغاليينَ، وألا تقدمَ بالطبعِ إلى الملكِ. وليكنْ نصيبهَا بعد كما يتصوره القارئُ اللبيبُ!

ويَرْوى مدوِّنُ الرحلةِ أنَّ تجارَ العربِ حَاولوا أنْ يعكِّروا الجوَّ بينَ «الزامرينَ» وبينَ البرتغاليينَ، لأنهم توقَّعُوا مِنْهُم منافسينَ لهم خَطرينَ فِى التجارةِ الهنديةِ العربيةِ التى احتكروهَا منْ زمنٍ بعيدٍ.

وبينما كانَ «فاسكو» يتحرَّقُ غضبًا وسُخْطًا، لما توهَّمه منْ معاكسةِ العربِ له فى بلاطِ «الزامرين»، كانَ رجالُه يقضونَ الليلَ فى غناءٍ ورقْصٍ ونَقْرٍ علَى الدفوفِ، ونفْخٍ فى النايَاتِ والمزامير..

وبينما كانَ البرتغاليونَ فى لَهْوِهم، كانَ تجارُ العربِ مع «الزامرين» يصورونَ له الأخطارَ التِى يحملهَا وَرَاءهم هؤلاءِ المغامرونَ منْ لُصوصِ البحار، وصَوَّروهم لديهِ فى صورةِ القراصنةِ الذينَ لا هَمَّ لهم إلا السَّلْب، واستطاعُوا - حِرْصًا علَى مَصَالحِهِم - أن ينفِّروا «الزامرين» منهم، وأن يُخوفوه منْ نِيَّاتهم وأغْراضِهم، إلى حدٍّ أثارَ مخاوفَ سيدِ البحار الهندى إلى حَدٍّ بَعيدٍ!.

وأشرقَتْ شمسُ اليومِ التالِى بحادثٍ جديدٍ..

لقد جَاء العربُ ليقدِّمُوا «فاسكو» ورجَالَه إلى «الزامرين»، وبدَا[1] الغضبُ عَلى وجهِ ملكِ «قاليقوط» لأسبابٍ أَعْلنهَا: أولها أنَّ «فاسكُو» حضرَ إلى القصرِ متأخرًا يومًا عَنِ الموعدِ المضْرُوب! وأنه يزعمُ أنه جاءَ مِنْ بلادٍ غنيةٍ ولكنه لم يقدمْ إلى الملكِ منَ الهدايَا ما يدلُّ عَلى هَذَا الغِنَى! وأنه زعمَ أنه جاءَ برسالةٍ منَ الملكِ «عمانويل»، ولكنه إلى الآن لم يقدِّمْ الرسَالة..

ولم تنفعْ اعتذاراتُ «فاسكو دى جاما» بأن متاعبَ الطريقِ قدْ أَخَّرَته عَنِ الحضور إلى القصرِ فى الأجلِ المحدودِ، وبأنه لم يحملْ هدايَا إلى «الزامرين» لأنه جاءَ مُكتشفًا لاَ مُهْدِيًا، أما الرسالةُ الملكيةُ فقد حملهَا حَقًّا، وهو مستعدٌّ لأنْ يسلمهَا عَلى الفور..!

وفى لهجةٍ ساخرةٍ وجَّه «الزامرين» إليه سؤالاً ترجَمه أحدُ التراجمةِ الذينَ أُعِدُّوا لهذا الاستقبالِ:

- مَا الذِى جئتَ تَكْتشفُه فى هذِه البلادِ؟ أجئتَ تكشفُ أَحْجَارًا أَمْ رجَالاً؟

وإذا كنتَ جئتَ لتكتشفَ رجالاً - كما تقولُ - فما الذِى حَملته إليهم؟ وسأل «الزامرين» أسئلةً أُخرى تتصلُ بالرسَالةِ الملكيةِ، وبعقائدِ البرتغاليينَ، وبالسِّلَعِ التِى يتاجرونَ فيها. وأجابَ «فاسكو»

---

(١) بَدَا: ظَهَرَ.

بـأنَّ حـاصلاتِ البرتغـالِ القمـح، والمنســوجَات، والحديـدِ، والــبرونْز وغيرهَا. وهنَا سَأله «الزامرين»:

- ألم تجلبْ معكَ شيئًا من هذِه السلعِ التِى ذَكَرت؟

فأجابَ «فاسكو» بأنه يحملُ معه قليلاً منْ كلِّ سلعةٍ، لاَ عَلى سبيلِ الاتجَار، ولكنْ عَلى سبيلِ المعاينَةِ!!

وظَلَّ «فاسكو» ورجَالُه فى «قاليقوط» قرابةَ ثلاثة أشهر تعرضُوا فيها لرضَا «الزامرين» حينًا ولسُـخْطه حينًـا آخـرَ، ولا شـكَّ أنَّ تجارَ العرب كانُوا يُوجِسُونَ خِيفةً منْ هؤلاءِ الوافدينَ المزاحمـينَ، ولا شـكَّ أنهم أَوْغَروا[1] صدرَ سيد البحار الهندِى عَلـى البرتغـاليينَ، فاعتقلَـهُم الوالِى العَرَبى بعدَ أنْ طلبُوا قـواربَ يعـودونَ فيهَا إلى سُـفُنهم، فلـم يجابُوا إلى طَلَبهم، واحْتواهـم ظـلامُ أسْـرٍ رَهيـبٍ. وَمـا زالَ «فاسـكو» بالمصانعةِ والحيلةِ مَعَ «الزامرين» حَتَّى عَلِمَ بأسْرِه، فأمرَ بأن يُطلـق سراحُه، وتفكَّ قُيوده، ويذهبُ فى التجـارةِ كمـا يَشَـاء، وعقـدَ معـه معاهدةً تجاريَّةً، كانتِ السبب فى زوالِ مُلْكه عَمَّا قليلٍ!

العودة إلى الوطن

أقامَ «فاسكو دى جاما» فى «قاليقوط» - ثغر الهندِ الكبـير - هـذه الأَشهرَ الثلاثةَ فِى غيرِ سلامٍ مَعَ «الزامرين»، ومعَ العربِ الذينَ كانُوا يحيطونَ سُفُنه كلَّ يومٍ بالرجَالِ الأشدَّاء المسلَّحينَ.

---

(١) أَوْغَرُوا صَدْرَه: أَغْرُوه بالحِقْدِ والضَّغْن.

ولكنَّ «فاسكو دى جاما» كانَ منْ طراز الرجالِ الذينَ لا يستسلمونَ ولا يتهيّبونَ، لأنَّ غايته كانتْ أبعدَ مِنْ أنْ تقفَ - دُونها - بعضُ متاعبِ الطريق. واستطاعَ بالحيلةِ وبحسنِ المدخلِ أن يتودَّدَ إلى «الزامرين» وأتباعِه منَ الهنودِ، ولكنَّ العربَ كانوا علَى جانبِ الحذر والريبةِ دائمًا منْ هؤلاءِ الغرباءِ الوافدينَ.

واكتفَى «فاسكو» منْ رحلته بنجاحِ المهمةِ التِى أُوفدَ منْ أجلها، وبكشْفِ الطريقِ الذِى جاءَ ليَكْتشفَهُ، وقررَ العودةَ إلى وَطَنه ليحمِلَ إلى الملكِ «عمانويل» شخصيًا بُشْرى هذا الكشفِ السَّعِيد.

وغادرَ «فاسكو» بلادَ الهندِ فى أغسطس سنة ١٤٩٨ ليبلغَ البرتغالَ فى شهر سبتمبر من العام الذِى يليه.

ولبستْ مدينة «لشبونة» أجملَ حُللها لتستقبلَ الكاشِفَ الجرِىء، كَمَا وَدَّعته قبلَ ذلكَ بعامينِ فى شهر يوليو سنة ١٤٩٧.

وازدحَمَتِ المدينةُ العتيقةُ مرةً أُخرى بالآلافِ المؤلَّفةِ، منَ الرجَالِ والنساءِ والولدانِ، الذينَ جَاءُوا ليضعُوا إكليلَ الغار علَى جَبِينِ الرجلِ، الذِى كانتْ عيونُ الشعبِ البرتغالى كُلِّه تتطلعُ إليه مِنْ وراءِ الغيبِ البَعِيد..

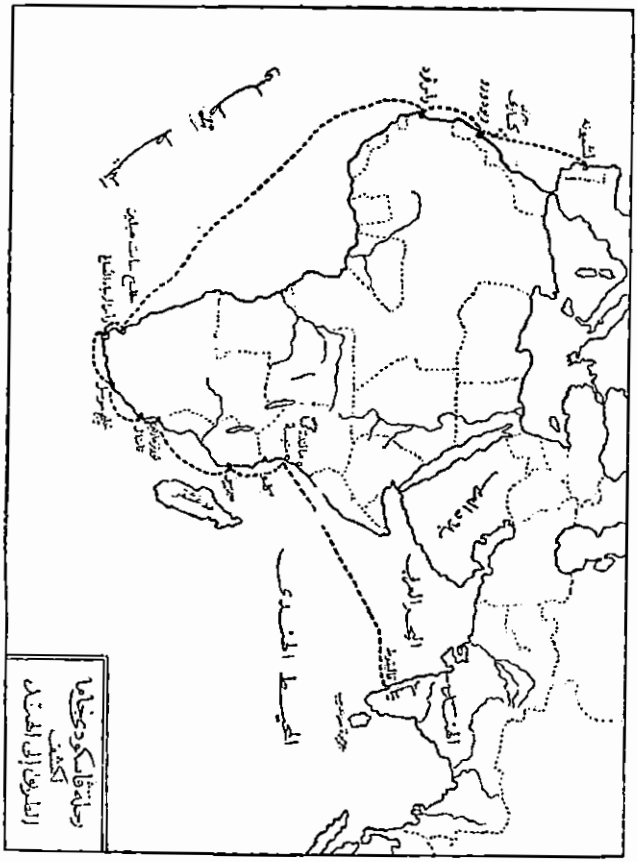

رقم الإيداع	٢٠٠٤/٨٩٣٥
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6657-4

٧/٢٠٠٤/١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)